حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب - جامعة الكويت

د. توفيق علي الفيل

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الكويت

الفصاحة

مفهومها

وبم تتحقق - قيمها الجمالية

الرسالة السابعة والعشرون

الحولية السادسة

١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ

مجلس التحرير

د. عبد الله يوسف الغنيم — رئيس مجلس التحرير
د. نجاة عبد القادر الجاسم — رئيس هيئة التحرير

هيئة التحرير
أ. د. فؤاد زكريا
أ. د. داوود حلمي السيد
أ. د. أحمد علي اسماعيل
أ. د. سعيد عاشور

أ. د. سعد عبد الرحمن
د. محمد سليمان الحداد
د. د. وفيق العسيل

ثمن الرسالة

الكويت ٤٠٠ فلس ـ البحرين نصف دينار ـ قطر ٥ ريالات ـ الامارات ٥ دراهم ـ السعودية ٥ ريالات ـ عمان نصف ريال ـ اليمن الجنوبي ٢٠٠ فلس ـ اليمن الشمالي ٣ ريالات ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ ج. م. ع. ٤٥ قرشا ـ لبنان ٥ ليرات ـ الأردن ٢٥٠ فلس ـ سوريا ٥ ليرات ـ السودان ٢٥٠ مليما ـ ليبيا ٤٠ قرشا ـ الجزائر ٥ دنانير ـ تونس ٤٠٠ مليم ـ المغرب ٥ دراهم.

الاشتراك السنوي

للأفراد ديناران كويتيان في الكويت ـ ديناران وخمسمائة فلس في الوطن العربي ـ عشرون دولاراً أمريكيا في الخارج بالبريد الجوي

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية عشرة دنانير كويتية ـ في الخارج أربعون دولاراً أمريكيا

لأعضاء هيئة التدريس والطلاب خصم ٥٠ ٪.

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية إستفسارات أخرى بشأن الحوليات توجه إلى رئيس هيئة تحرير الحوليات ـ ص. ب. ١٧٣٧٠ الخالدية ـ الكويت.

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

حوليات كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب - جامعة الكويت

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دورية علمية محكمة ومنتظمة تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصالة موضوعات وقضايا ومشكلات علمية في مجالات اللغة والأدب والفلسفة والتاريخ والاجتماع والجغرافيا وعلم النفس، وتمثل معيناً علمياً للمثقفين العرب.

الحولية السادسة - الرسالة السابعة والعشرون
١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الرسالة السابعة والعشرون

الفصاحة

مفهومها

وبم تتحقق - قيمها الجمالية

كتابخانه ومركز اطلاع رساني
بنياد دايرة المعارف اسلامي

د. توفيق علي الفيل
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الكويت

حوليات كلية الآداب - الحولية السادسة ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ

المؤلف

د. توفيق علي الفيل

- دكتوراه في النقد الادبي والبلاغة ـ جامعة عين شمس.
- أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة الكويت.

من انتاجه العلمي

كتب :

١ ـ من قضايا النقد والبلاغة ١٩٨٠

٢ ـ القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ١٩٨٤

مقالات :

١ ـ طه حسين وقضية التأثير الهليني في البلاغة العربية ـ المجلة العربية للعلوم الانسانية.

٢ ـ مكانة البلاغة في الدرس اللغوي والأدبي ـ مجلة البيان ـ الكويت.

محتوى البحث

- ملخص ٧
- تمهيد ٩
- مفهوم الفصاحة عند البلاغيين ١١
- بم تتحقق الفصاحة ١٦
  - أ ـ الانسجام في اللفظ ١٧
  - ب ـ تناسب الحروف في المخرج ١٨
  - ج ـ صحة البنية في اللفظ ٢٠
  - د ـ الاعتدال ٢٢
  - هـ ـ عدم الغرابة والابتذال ٢٢
  - و ـ استخدام اللفظ على نحو استخدام العرب له ٢٦
  - ز ـ بعد اللفظ عن سوء الايحاء ٢٧
- بم تكون الفصاحة في التراكيب ٢٧
  - أ ـ الانسجام في التركيب ٢٨
  - ب ـ عدم تداخل الألفاظ (المعاظلة) ٢٩
  - ج ـ الموافقة لقوانين اللغة في التراكيب ٣١
- دراسة جمالية في التناسب ٣٦
- دراسة تطبيقية حول الفصاحة ٤٤
- الهوامش ٥١
- مصادر البحث ٥٣

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ملخص

اشتمل البحث على تمهيد بينت فيه أهم المؤثرات التي كان لها دخل في تشكيل علم البلاغة بصفة خاصة، ومبحث الفصاحة من بين مباحثه بصفة عامة، كان لها أثر في اختلاف النظر في قضاياه ومسائله، وأرجعت ماوجد من خلاف في تصور هذه القضايا إلى اختلاف مناهج البحث عند أولئك العلماء الذين أسهموا بدور فيه. وهم علماء الكلام، وعلماء الأصول، وعلماء اللغة وأخيرا الأدباء الذين كانت لهم نظرتهم الخاصة، والذين عنوا أكثر من غيرهم بالنواحي الجمالية.

كما عرض البحث لمفهوم الفصاحة، وماورد عن العلماء القدامى في ذلك، والشروط التي وضعوها لفصاحة الألفاظ والتراكيب. وقد عني البحث بمناقشة هذه الشروط، و بين مدى التقائها مع مبادىء علم الجمال. وتجدر الإشارة إلى ماعرضت له فيما يتعلق بفصاحة اللفظ. فقد ورد عن القدماء في ذلك وجوب موافقة اللفظ لقوانين اللغة في الاشتقاق والتصريف والجموع. لكني بينت أنه يمكن الخروج على ذلك من أجل تحقيق غايات جمالية. وقد استشهدت على ذلك بما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على غير البنية المشهورة، وكان ذلك لتحقيق التناسب. ولم تكن مثل هذه الغاية الجمالية بعيدة عن إدراك الشعراء أو [illegible]. فقد أشرت من خلال البحث إلى ماقام به أبو الطيب المتنبي من خروج على البنية الصرفية، وما أجاب به أبا الفتح ابن جني حين راجعه في ذلك. واقتناع الأخير بحجة الشاعر، وقبوله للتفسير الذي قدمه.

ولقد كان لقضية التناسب عناية كبيرة عند علماء العرب القدامى، ودرسوا كثيرا من الظواهر الفنية التي تعود إليها. وقد بينت جانبا من ذلك خلال البحث.

وكان من بين القضايا التي ناقشتها ماوضعوه من شرط فصاحة اللفظ يتمثل في بعده عن الغرابة أو السقوط، حيث انتهيت إلى أن مثل هذه الألفاظ قد يتيح لها من الأدباء من يضعها في الوسط اللغوي الذي يلائمها، و بذلك يزيل غرابتها و يتيح لها شيئا من الجدة.

وقد ختمت البحث بدراسة تطبيقية من خلال قصيدتين. حيث بينت مدى الانسجام والتوافق بين الألفاظ مفردة ومنتظمة، وكيف كشفت هذه الألفاظ والتراكيب عن المعاني التي أراد الشاعر أن يعبر عنها. ولما كنت أؤمن بالتلازم بين اللفظ والمعنى و بالتلازم بين كل الوسائل في أداء المعنى، فقد امتدت هذه الدراسة إلى أسلوب هاتين القصيدتين.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد

من الضروري لمن يتصدى لمثل هذا البحث أن يلقي نظرة سريعة على بعض المؤثرات التي كان لها دخل في تشكيله، وتصور مسائله.

ولقد كان من أقوى هذه المؤثرات وأهمها فيما يتعلق بالبلاغة بصفة عامة والفصاحة من بينها بصفة خاصة اتجاهات المشتغلين بها، ومنحاهم الثقافي والفكري، ومنهجهم في تناول الأمور وغاياتهم من بحثها.

ومن المعروف أن أكثر العلماء الذين كان لهم دور بارز في علم البلاغة هم علماء الكلام. سواء أكانوا من المعتزلة، أم من أهل السنة والجماعة.

وليس من قبيل المصادفة أن تكون أول إطلالة علينا فيما يمكن أن نسميه بلاغة تلك الصحيفة التي اشتهرت في تاريخ البلاغة والنقد الأدبي باسم صحيفة ((بشر بن المعتمر ـ المتوفي سنة ٢١٠هـ والذي انتهت إليه رئاسة المعتزلة في بغداد. ونجد فيها حديث ((بشر)) هذا عن المعاني ومايناسبها من الألفاظ كما نجد فيها حديثا عن اللفظ ومايجب أن يكون عليه من العذوبة والرشاقة والفخامة. ومناسبة الكلام لمن يوجه إليهم من جهة، وأن موضوعه من جهة أخرى، أو ما أطلق عليه البلاغيون ((مراعاة الكلام لمقتضى الحال. وكل هذه المسائل هي من حديث البلاغة والفصاحة. وتقنين المبادىء لها. ولانشك في قيمة صحيفة بشر بن المعتمر في حقل الدراسات البلاغية، وبخاصة من جهة ترشيدها لابراهيم بن جبلة، ذلك الذي كان يعلم بعض فتيانهم الخطابة، ثم عدل من خطته نتيجة لما استمع إليه من بشر بن المعتمر، وتقريره لأهميته. وقوله بعد الاستماع إليه أنا أحوج هذه الصحيفة من هؤلاء الفتيان (١) .

ولم يكن بشر بن المعتمر وحده في هذا الشأن. فهناك أسماء لايقل دورها عما قام به إن لم يزد عليه بكثير. ومن بين هؤلاء: أبوعثمان الجاحظ، الذي عنى بالبيان وطرق بعض

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

أبواب البلاغة في كتبه التي بين أيدينا. بل إن دور الجاحظ كان كبيرا حيث وجه الدراسات البلاغية والنقدية. وبخاصة في دراسة اللفظ والمعنى. تلك القضية التي شغل بها النقد العربي. والبلاغة العربية، وصرف العلماء جهدا كبيرا حولها. فمما يروى أن الجاحظ مر بأبي عمرو الشيباني، وهو ذو شأن في اللغة. وسمعه يستحسن قول الشاعر:

لاتحسبن الموت موت البلى إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

وذلك لما يتضمنه البيتان من المعنى، فلم يرق ذلك الجاحظ. وذهب إلى القول بخلو البيتين من الشاعرية، وبعدهما عن الحسن حيث قال: «وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة، وضرب من التصوير(٢) ولم يكن الجاحظ يحط من شأن المعنى ولكنه كان يريد التصدي للتيار المبالغ في تفضيل الشعر من أجل معناه.

وأيا كان الامر فقد كانت عبارة الجاحظ تلك بداية لصراع حول اللفظ والمعنى، حيث انقسم النقاد حولهما، وراحت كل جماعة تنافح عن دعواها. وتقدم الأدلة والبراهين على صدقها وأحقيتها بالنظر. وقد انعكس ذلك كله على مانحن بصدده من البحث في الفصاحة، واختلاف وجهة النظر فيها. ومن اليسير علينا أن نميز من خلال الحدود والتعريفات التي قدمت لكل من البلاغة والفصاحة معتقدات علماء الكلام من جهة وأنصار كل من اللفظ والمعنى من جهة أخرى. فقد نجد الاهتمام بالتحديد والتقسيم، ومحاولة تقديم التعريف المانع الجامع، والخشية من أن يؤدي تعريف ما.. إلى مخالفة المذهب الكلامي.

وعلى الرغم مما قدمناه من طرق ومناهج في البحث البلاغي لم يخل هذا الحقل من آراء لعلماء آخرين أدلوا بدلوهم فيه، ومن ثم اختلفت نظرتهم إليه. وقد سبقت الاشارة إلى رأي عالم لغوي في الشعر «هو أبوعمرو الشيباني» وماكان لهذه النظرة من تأثير مضاد عند الجاحظ كما تجدر الاشارة إلى فريق آخر لم يفرق بين اللفظ والمعنى وعلى رأس هذا الفريق عبد القاهر الجرجاني.

وبعد هذه المقدمة التي رأيناها ضرورية لما تظهره من أسباب لاختلاف وجهات النظر حول كل من البلاغة والفصاحة نتناول تعريف بعض البلاغيين للفصاحة فنقول:

مفهوم الفحاصة عند البلاغيين

يبين أبو هلال العسكري اختلاف النظرة إلى مفهوم الفصاحة. فيقول: قال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لايسمى الله تعالى فصيحا، لأن الفصاحة تتضمن الآلة، ولايجوز على الله تعالى الوصف بالآلة، و يوصف كلامه بالفصاحة ، لما يتضمن من تمام البيان.

والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لايسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف.

وعلى هذا التصور تكون الفصاحة غير البلاغة. حيث تتعلق الفصاحة باللفظ والبلاغة بالمعنى. فإذا قلت: فصح الرجل، أفاد ذلك أنه صار إلى حال يقيم فبها الحروف و يوفيها حقها. وإذا قلت: بلغ، أفاد ذلك أنه صار إلى حال يؤدي فيها المعاني حق تأديتها في صورة مقبولة، ثم صار الفصيح والبليغ صفتين لمن جاد لفظه و بان معناه.

ثم يسوق أبو هلال تصورا آخر للفصاحة يجعلها لاتختلف مع البلاغة، و يرجع هذا التصور للفصاحة إلى قولهم: «أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها الإظهار قول العربي: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر، وفصح أيضا. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح و يبين». ثم ينتهي من ذلك إلى القول : «واذا كان الأمر كذلك. فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى وإظهاره»، إذ البلاغة لفظ مأخوذ من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، و بلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته. وقد سميت البلاغة بهذا الاسم لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع، و يبدو أن أبا هلال العسكري يميل إلى التفريق بين الفصاحة والبلاغة، وأنه ممن يساير الاتجاه القائل بأن البلاغة تختص بالمعاني، وأن الفصاحة تختص بالألفاظ.

أما ابن سنان الخفاجي فيقول عن الفصاحة: «الفصاحة»: الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، وفصح فهو فصيح. قال الشاعر : وتحت الرغوة اللبن الفصيح.

و يقول : أفصح الصبح إذا ظهر ضوءه، وأفصح كل شيء إذا وضح. وفي الكتاب العزيز «وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي» وفِصْحُ النصارى : عيدهم وقد تكلمت به العرب. قال حسان:

ودنا الفسح فالولائد ينظمـ ـن سراعا أكلة المرجان

وعلى الرغم مما يبدو في تعريف ابن سنان الخفاجي للفصاحة من الاتفاق بينها وبين البلاغة نجده يميل إلى التفريق بينهما، ويجعل البلاغة مما يختص بالمعنى، والفصاحة مما يختص بالألفاظ وذلك حيث يقول: «والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على الألفاظ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني. لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه (٣) » إلا أن ابن سنان ـــ وقد جعل الفصاحة شطرا من البلاغة ـــ لايميز القول فيها إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما. أما مايصعب فيه التفريق بينهما فيتحدث فيه على العموم. وهو يقول في ذلك: «وإذا كانت الفصاحة شطرها ـــ أي البلاغة ـــ وأحد جزئيها. فكلامي على المقصود ـــ وهو الفصاحة ـــ غير متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ماقدمت ذكره، وما سوى ذلك فعام لايختص، وخليط لاينقسم. وسأذكر بمشيئة الله مايخطر لي، ويسنح بفكري في موضعه (٤) ».

وابن سنان الخفاجي بهذا القول يعترف بالتلازم بين الفصاحة والبلاغة في بعض المواضع. وهو لذلك لم يجد مفرا من الحديث فيها على أنها تتدخل في الفصاحة على الرغم من أن جمهور البلاغيين وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني يجعلونها من البلاغة. ولم يقع عبد القاهر في مثل ماوقع فيه ابن سنان الخفاجي من الخلط. ذلك لأنه لم يفرق بين اللفظ والمعنى، كما لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة. وأرجع الأمرين إلى ما أطلق عليه النظم. بل نجده يحمل بشدة على أولئك الذين يفرقون بين اللفظ والمعنى، ومن ثم بين الفصاحة والبلاغة، ويحاول بكل السبل والحجج أن يبين وجه الصواب في القضية وذلك لأهميتها من جهة، ولما يترتب عليها من جهة أخرى. يقول: «قد أردت أن أعيد القول في شيء هو أصل الفساد، ومعظم الآفة، والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل، وأخذ بهم عن طريق النظر، وحال بينهم وبين أن يصغوا إلى مايقال لهم، وأن يفتحوا للذي تبين أعينهم» ثم يأخذ في بيان ذلك الشيء الذي يجعله أصل الفساد، وأنه يحول بين القوم ومعرفة الأمور على وجهها. وذلك يأتي عن طريق مايعتقدونه من اتفاق العقلاء على أنه يصح التعبير عن المعنى الواحد بلفظين مختلفين، ثم يكون لأحدهما مزية على الآخر وأن أحدهما فصيح والآخر غير فصيح. ورتبوا على ذلك ضرورة أن يكون للفظ شيء من المزية، إذ لو كانت المزية مقصورة على المعنى «لكان محالا أن يجعل لأحد اللفظين فضل على الآخر مع أن المعبر عنه واحد» ويؤيدون ذلك بأنه إذا لم يسلم لهم ماقالوا به لكان ينبغي أن يكون للبيت من الشعر فضل على تفسير المفسر له، ومثل ذلك الآية من القرآن. وإذا حدث ذلك

لم يكن ماتم تفسيرا. و يرد عبد القاهر على هذه الشبهة، بأن مايريده بالفصاحة هو مايحدث بعد التأليف دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة مفردة، ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها. وأن مايريده العقلاء بقولهم: «إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح، إنما هو العبارة. وكأنهم قالوا: «إنه يصح أن تكون هاهنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد، ثم يكون لإحداهما تحسين ذلك المعنى وتزيينه، وإحداث خصوصية فيه وتأثير لايكون للأخرى (٥) ».

إن المعنى يكون عاميا غفلا ساذجا، موجودا في كلام الناس كلهم، لكنك تراه حين يعمد إليه الحاذق البصير بشأن البلاغة، فيحدث فيه نوعا من التصوير يحيله إلى شيء جميل معجب. وشواهد ذلك ــ كما يقول عبد القاهر ــ «حاضرة لك كيف شئت، وأمثلته نصب عينينك من أين نظرت. تنظر إلى قول الناس: الطبع لايتغير، ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جُبل عليه، فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمه، ثم تنظر إليه في قول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

فتجده قد خرج في أحسن صورة، وتراه قد تحول إلى جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئا (٦) ».

ونخلص من كل هذا إلى أن عبد القاهر الجرجاني يرى أن الكلمة في حال إفرادها لا تفضل غيرها، وإنما يظهر فضلها وتتضح مزيتها حين تأخذ مكانها بين غيرها من الألفاظ، وتتعاون معها في حسن الأداء، وتمام المعنى ــ فلامعنى لوصف الكلام بالفصاحة والبلاغة والبراعة. غير وصفه بحسن الدلالة وتمامها، وإخراجه في أحسن الصور وأجملها، بحيث يستميل النفوس، و يستهوي القلوب. ولايتحقق ذلك لمن يريده «بغير تناوله للمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وأن يختار له من الألفاظ ماهو أخص به، وأكشف عن معناه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، و يظهر فيه مزية» (٧) واللفظ في حال إفراده لايحقق شيئاً من ذلك ولايقوم به. والألفاظ لا تتفاضل بينها من حيث هي ألفاظ من جهة الدلالة. فلفظ [رجل] ليس أدل على معناه الموضوع له من لفظ [فرس] في دلالته على ماسمي به. وليس لأحد اللفظين الموضوعين لشيء واحد خصوصية في دلالته على ذلك الشيء عن الآخر. فلفظ [ليث] لايفضل لفظ [أسد]. ثم ينتهي عبد القاهر إلى القول: «وهل يقع في وهم ــ وإن جُهد ــ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه، من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية؟ أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن. ومما يكد به اللسان أبعد؟

وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، و بالقلق والنبوعن سوء التلائم، وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها؟.. ثم يمثل لذلك بكلمة [أخدع] في بيت الصمة. و بيت البحتري الذي يقول فيه:

وانـي وإن بـلـغـتـنـي شـرف الـغـنـى   وأعـتـقـت مـن رق الـمـطـامـع أخـدعـي

و يبين أنها تحسن في قول الصمة وقول البحتري. وان حسنها فيهما لايخفى. لكن ذلك لم يتم لها في قول أبي تمام:

يـا دهـر قـوم مـن أخـدعـيـك فـقـد   أضـجـجـت هـذا الأنـام مـن خـرقـك

فقد جاءت ثقيلة مستكرهة، وكان لها من التنغيص والتكدير أضعاف ما كان لها في البيتين السابقين من الخفة، والإيناس والبهجة.

ومثل ذلك يقال في لفظة «الشيء» فقد استخدمها عمر بن أبي ربيعة استخداما حسنا، ووفر لها وسطا جانسها، فقال:

ومـن مـالـئ عـيـنـيـه مـن شيء غـيـره   إذا راح نـحـو الجـمـرة الـبـيـض كـالـدمـى

ومثل ذلك فعل أبو حية النمري في قوله:

إذا مـا تـقـاضـى المـرء يـوم ولـيـلـة   تـقـاضـاه شيء لايمـل الـتـقـاضـيـا

لكن أبا الطيب المتنبي أخفق في صنع هذا التجانس بينها و بين وسطها، فلم يتحقق له ما تحقق للشاعرين من الحسن. ويختم عبد القاهر حديثه في ذلك بقوله: «فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظة. وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما ان تحسن أبدا، أو لاتحسن أبدا. ولم تر قولا يضطرب على قائله، حتى لايدري كيف يعبر، وكيف يورد و يصدر، كهذا القول، بل إن أردت الحق فإنه من جنس الشيء يجري به الرجل لسانه، و يطلقه، فإذا فتن نفسه وجدها تعلم بطلانه، وتنطوي على خلافه، وذلك مما لايقوم بالحقيقة في اعتقاد، ولايكون له صورة في فؤاد (٨) ».

وما أخذناه عن عبد القاهر. يشير إلى أنه لايذهب مذهب غيره من النقاد والبلاغيين القدامى. فاللفظ المفرد لايتصف بالفصاحة ولا البلاغة إلا في مواضع محدودة وذلك ماتقوم عليه نظريته في النظم. كما أن مايطلق عليه الفصاحة ليس شيئا خاصا بالألفاظ، وإن أطلقت عليه، أو بعبارة أخرى لاتختلف الفصاحة عن البلاغة، والبيان والبراعة. فكلها يقصد بها حسن الدلالة

وتمامها، وذلك لايتأتى بغير الألفاظ مجتمعة، ووضعها في علاقات. كما أن عبد القاهر يبين في غير هذا الموضع أن من الصفات مايطلق على الألفاظ، ولكنها تكون صفات للمعاني، وإنما تطلق على الألفاظ لأنها رموز لهذه المعاني وإرشادات إليها. يقول: «ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ، ثم لا تعترضك شبهة، ولايكون عندك توقف في أنها ليست له، ولكن لمعناه قولهم: لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولايكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم يدخل في الأذان بلا استئذان، فهذا لايشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لايتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة (٩) ».

ومن خلال التمهيد الذي قدمنا به لهذه الدراسة يتضح لنا أن الخلاف حول مفهوم كل من الفصاحة والبلاغة يعود الى اختلاف مناهج الدراسة عند الباحثين في هذا العلم من جهة، وخلافهم حول اللفظ والمعنى من جهة أخرى. وتجدر الاشارة إلى ما ذهب إليه «ابن جنى» من التلازم بين اللفظ والمعنى، وماقال به من أهمية إصلاح اللفظ وتهذيبه والعناية به، لأنه دليل على المعنى، والموصل إليه. وهو يقول في هذا: «اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة، وعليها أعنة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها (١٠)، وذلك يذكرنا بقول بشر بن المعتمر، ومن حق المعنى الشريف أن يكون له اللفظ الشريف.

وأيا كان الخلاف في مفهوم الفصاحة والبلاغة، فسوف نحاول تناول ماتتحقق به.

بم تتحقق الفصاحة؟

من خلال تعريف الفصاحة عند علماء البيان والتعريف الذي عرفها به العلوى صاحب الطراز يتضح أن الفصاحة تكون في اللفظ المفرد، كما تكون في التركيب. يقول ابن سنان الخفاجي: «إن الفصاحة على ماقدمنا صفة للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلامزيد على فصاحة تلك الألفاظ، و بحسب الموجود منها يأخذ القسط من الوصف، و بوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم، وتلك الشروط على قسمين: فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه، والثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض (١١) و يتناول ابن سنان الشروط التي يجب أن تتوفر في اللفظ ليكون فصيحا. وهو لايذهب مذهب اللغويين في هذا الأمر. فإذا كان ثعلب يرى فصاحة اللفظ تكمن في كثرة استعمال العرب له، وجريانه على ألسنتهم أيا كانت الصفة

وتمامها، وذلك لايتأتى بغير الألفاظ مجتمعة، ووضعها في علاقات. كما أن عبد القاهر يبين في غير هذا الموضع أن من الصفات مايطلق على الألفاظ، ولكنها تكون صفات للمعاني، وإنما تطلق على الألفاظ لأنها رموز لهذه المعاني وإرشادات إليها. يقول: «ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ، ثم لاتعترضك شبهة، ولايكون عندك توقف في أنها ليست له، ولكن لمعناه قولهم: لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولايكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم يدخل في الأذان بلا استئذان، فهذا لايشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لايتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة (٩) ».

ومن خلال التمهيد الذي قدمنا به لهذه الدراسة يتضح لنا أن الخلاف حول مفهوم كل من الفصاحة والبلاغة يعود الى اختلاف مناهج الدراسة عند الباحثين في هذا العلم من جهة، وخلافهم حول اللفظ والمعنى من جهة أخرى. وتجدر الاشارة إلى ما نبه إليه «ابن جنى» من التلازم بين اللفظ والمعنى، وماقال به من أهمية إصلاح اللفظ وتهذيبه والعناية به، لأنه دليل على المعنى، والموصل إليه. وهو يقول في هذا: «اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة، وعليها أعنة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها(١٠)، وذلك يذكرنا بقول بشر بن المعتمر، ومن حق المعنى الشريف أن يكون له اللفظ الشريف.

وأيا كان الخلاف في مفهوم الفصاحة والبلاغة، فسوف نحاول تناول ماتتحقق به.

بم تتحقق الفصاحة؟

من خلال تعريف الفصاحة عند علماء البيان والتعريف الذي عرفها به العلوى صاحب الطراز يتضح أن الفصاحة تكون في اللفظ المفرد، كما تكون في التركيب. يقول ابن سنان الخفاجي: «إن الفصاحة على ماقدمنا صفة للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلامزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها يأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم، وتلك الشروط على قسمين: فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه، والثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض(١١) ويتناول ابن سنان الشروط التي يجب أن تتوفر في اللفظ ليكون فصيحا. وهو لايذهب مذهب اللغويين في هذا الأمر. فإذا كان ثعلب يرى فصاحة اللفظ تكمن في كثرة استعمال العرب له، وجريانه على ألسنتهم أيا كانت الصفة

التي يأتي عليها هذا اللفظ، ومهما كانت درجة الانسجام والتوافق بين حروفه. فالأساس في الفصاحة عنده استعمال العرب للفظ. والسيوطي (١٢) ينقل عن ثعلب في كتابه «الفصيح» مايفهم منه ذلك. كما يفهم منه أن ماورد عن العرب من الألفاظ واحد من أربعة أقسام.

لفظ واحد مستعمل عند العرب، وهذا اللفظ مقبول عنده.
ولفظ فيه لغة والناس على خلافها. وهو يرى أن الصواب ماعليه الناس.
ولفظ فيه لغتان أو أكثر، واختياره يكون لأفصح هذه اللغات.
ولفظ فيه لغتان كثرتا واستعملتا، وليس لإحداهما ميزة على الأخرى وهما عنده متساويتان.

فإنه يتعذر ضبط ماورد عن العرب في استعمالاتهم المختلفة كما يتعذر معرفة أي الألفاظ كان أكثر دورانا على الألسنة، وفي أي عصر من العصور، وهل يتساوى في ذلك تلك الألفاظ التي وردت عنهم في فترة مبكرة أو لايتساوى؟ لأننا نجد في أخبارهم والمروى عنهم مايفيد عنايتهم بلغتهم وتهذيبها، واطراح الشنع منها، واختيارهم لما يخف على اللسان، و يسهل النطق به (١٣). كما أنه يعود بنا إلى نقطة البدء عندما يتحدث عن اللفظ الذي توجد فيه لغتان أو أكثر حيث يقول: «واختياره للأفصح منهما ونسأل كيف يقف على الأفصح ؟.

ولما كان من العسير الوقوف على ما استعملته العرب من الألفاظ ومالم تستعمله، كانت الضوابط التي وضعها علماء البيان أقرب إلى التناول مما حدد به ثعلب. وقد حدد ابن سنان فصاحة اللفظ في ثمانية أمور نشير إلى بعضها، ونحاول أن نلتمس العلة في اشتراطه.
الأول: أن يكون تأليف اللفظ من حروف متباعدة في مخارجها حتى لا يثقل النطق به على اللسان. وهو يرى أن ما أهمل من الألفاظ لم يكن له سبب غير هذه العلة. كما يرى أن ذلك الأمر من مزايا هذه اللغة. ثم يعلل لهذه المسألة بأن الأصوات تجرى في السمع مجرى الألوان من البصر. وأن الألوان كلما كانت متباينة كان وقعها على العين أحسن من الألوان المتقاربة، وذلك مايراه في النقوش التي تحسن كلما كانت الألوان التي مزجت منها متباعدة. وكذلك الأمر بالنسبة للأصوات، فالأذن ترتاح لما تباعد منها أكثر من ارتياحها لما تقارب. وربما كانت تلك عادتهم في النظر إلى الأشياء. وهم يمثلون لماقبح من الألفاظ بسبب تنافر الحروف فيها لتقارب مخارجها بلفظ «الهُعْخُع» فيما يروونه من أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال تركتها ترعى «الهُعْخُع».

كما يمثلون له بقول امرىء القيس في وصف الشَّعر:

وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المدارى في مثنى ومرسل

وقد وجد البلاغيون في كلمة «مستشزرات» بعدا عن الفصاحة لتقارب مخارج الحروف فيها، ومن اليسير أن يلمس القارىء عسر النطق في هذه الكلمة. والذي أدى إلى هذا الثقل اجتماع السين والشين والزاي.

و يذهب بعض الباحثين المحدثين (١٤) إلى أنّ حكم البلاغيين على هذه الكلمة غير صحيح في الدراسة الأدبية والنقدية، وفي فصاحة الكلمة أو عدم فصاحتها «ذلك أن الكلمة تحمل إلى جانب جرسها ووقعها في الأذن، وحركة اللسان بها إيحاء بالمعنى وظلالا وموسيقى، ومايسميه علماء الصوتيات بالأونوماتوبيا Onomatopoeia و يعنون بها موافقة صوت الكلمة لما هو مقصود منها.

و ينتهي من ذلك إلى أنه لاشيء يصور ذلك الشَّعر الغزير المتجعد الذي تضل المدارى فيه سوى هذه الكلمة ذات الحروف المضطربة التي يضل اللسان وهو يجهد للنطق بها.

وماذهب إليه الباحث له نصيبه من الصحة من وجهة نظر النقد الأدبي. ولو كانت الكلمة تعبر وحدها عن هذا الشَّعر المتعثكل لقلنا إنها جاءت لمثل هذه الدلالة. ولكن لعل كلمة «المتعثكل» أشد إيحاء بالموقف، وليس فيها ذلك التعسر الذي يخالف منطق العربية، كما أن القياس الذي ذهب إليه الباحث لايستقيم من وجهة نظرنا — فقد مثل للإيحاء بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض». حقا قام لفظ «اثاقلتم» في الآية الكريمة بما يراد له القيام به من الإيحاء ببطء الحركة وثقلها.

لكنها تخلو من التنافر بين حروفها على نحو مانجد في كلمة مستشزرات. فلايوجد تقارب بين مخارج حروفها، وقد تم ادغام التاء في الثاء بعد ابدال التاء ثاء. وهذا ماتلجأ إليه العربية في الحروف المتماثلة حيث يتم ادغامها حتى لايتحرك اللسان في منطقة واحدة. وإنه لمن المعيب أن يفك الادغام لغير علة، لأن ذلك سيؤدي إلى الاستثقال الذي تتحاشاه العربية. كما أن كلمة «مستشزرات» التي وردت في بيت امرىء القيس تحمل عيبا آخر نبه على تحاشي مثله ابن سنان الخفاجي (١٥) حيث رأى أن جزءا من فصاحة الكلمة يتحقق من خلال اعتدالها وعدم كثرة حروفها وهو يقول في ذلك: «أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى

زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. ومن ذلك قول أبي نصر بن نباته:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم   ألا إن مغناطيسهن الذوائب

فمن الواضح أن كلمة مغناطيسهن مستكرهة سمجة لاشية فيها للفصاحة علاوة على أنها كلمة لاتصلح للشعر لجفافها وانعدام الايحاء فيها. وهناك أمثلة أخرى يأتي بها ابن سنان نكتفي منها بإيراد مثال واحد، هو قول المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها

وما من إنسان منح شيئا من الحس العربي إلا سيجد في كلمة (سويداواتها) طولا يجعلها منافية للفصاحة.

ومما يؤيد ماذهب اليه ابن سنان مانلاحظه من كثرة الأصل الثلاثي في العربية يليه الرباعي، يليه الخماسي، وأقل الكلمات المستعملة في هذه اللغة الكلمات ذات الأصل السداسي. وليس من علة نراها لإهمال تلك الكثرة من السداسي إلا مارآه ابن سنان، ونراه معه، من نبو ذوق العربي عن الكلمات التي تكثر حروفها. وأخيرا نجد عيباً آخر في كلمة «مستشزرات» هو عدم التوافق بين الأصوات الصادرة عن حروفها. وقد تنبه البلاغيون القدامى إلى شيء قريب من هذا وإن لم يقفوا على سببه أو يعرفوا العلة فيه. ويؤيد هذا، الشرط الثاني الذي رأوه لفصاحة اللفظ فقد وجد البلاغيون والنقاد أن الكلمتين تأتيان وقد تباعدت مخارج حروفهما لكن يكون لإحداهما من الحسن والمزية مالايكون للأخرى. وأن ذلك يكون بضرب من التأليف، أو كما يقول ابن سنان: «كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه» وهو يستشهد على ذلك بالحروف (ع ذ ب) و يبين أنها حين تأتي على هذا الترتيب يكون لها حسن يفوق الوضع على نظام آخر. و يقول: «فإن السامع يجد لقولهم العذيب ــ اسم موضع، وعذيبة اسم امرأة، وعذب وعذاب، وعذب وعذبات ــ مالايجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط. ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال، لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير» ثم يسوق عددا من الألفاظ ومرادفها، و يبين الحسن من القبيح منها. و يقارن بين التمايز في الألفاظ والتمايز في مسائل أخرى كالغناء أو النقش في الثياب، و ينتهي إلى القول بأن صاحب الذوق السليم يروقه صوت أكثر من غيره، كما يروقه نقش دون آخر. إلا أنه لايقر علة أو سبباً يُرْجِعُ إليها غير مايستهوي النفس من بين هذه الأشياء دون سواها (١٦) لكنا نقول إن السبب في زيادة كلمة في الحسن على غيرها يرجع بعد سلامتها من تنافر الحروف إلى مايكون بين أصوات هذه الحروف من توافق وانسجام. ونحن نعلم أن من

بين الحروف مايتصف بالشدة ومايتصف بالرخاوة واللين، ومن بينها مايكون مهموساً ومايكون مجهورا، ولايوجد سبب نرجع إليه جمال الموسيقى سوى التآلف بين الأصوات التي تصدر عن آلاتها، ولو تصورنا جوقة من الموسيقيين أخذت في عملها دون أن توائم بين درجات الصوت الصادر عن الآلات فيها لكان مايصدر عنها نشازا تنفر منه الأذن. إن اللغة كما يقول ابن جني «أصوات يعبر بها كل قوم عن حاجاتهم» وكلما كانت هذه الأصوات مؤتلفة كانت حسنة مقبولة. وكلما قل حظها من التوافق والائتلاف كانت جافية غير مقبولة. ولهذا السبب يرتاح الانسان لبعض الأصوات دون بعض، هذا مانجده في حياتنا. ألسنا نرتاح لصوت البلبل ونطرب له، ولانرتاح لصوت الغراب وننفر منه؟ ألا يكون لوقع صهيل الفرس من الأثر الطيب في النفس مالايكون لنهيق الحمار؟ حتى الأسماء سواء كانت أسماء شخوص أو أسماء أماكن منها مايكون مقبولا حسنا، ومنها مايكون قبيحا مردودا. ويمكننا أن نجد ذلك الأمر واضحا في لفظ «هند» الذي يتردد على ألسنة الشعراء، أو لفظ «ليلى» حيث نجد له من الوقع الحسن في

قول الشاعر: ألا حبذا هند وأرض بها هند

ما لانجده لقول جرير بن عطية في قوله:

وتقول بوذع قد دببت على العصا   هلا سخرت بميرنا يابوذع

وقد ذكر النقاد القدامى أن الوليد بن عبد الملك قال له: أفسدت شعرك بوذع. كما يمكن أن نجد ذلك في أسماء الأماكن حيث جاءت حسنة مقبولة في قول الصمة بن عبد الله:

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى   وقل لنجد عندنا أن يودعا

وجاء لفظ «حبيناء» قبيحا مرذولا في قول أبي تمام:

يقول أناس في حبيناء عاينوا   عمارة رحلي من طريف وتالد

وعلق عليه النقاد بقولهم: «ما الفادة في ذكر (حبيناء)؟ ليس أبو تمام مضطراً إلى ذكر الموضع الذي قيل له فيه هذا(١٧)».

ونلخص مانراه في هذه المسألة بأن فصاحة الكلمة تتوقف على عدم قرب المخارج في حروفها قربا يجعل اللسان يتعثر في نطقها. فإذا سلمت من هذا التنافر تطلب حسنها وقبولها انسجام الأصوات الصادرة عنها. وذلك هو السبب في زيادة كلمة في الحسن على غيرها. كما أنه الأساس الذي يعود إليه استحسانهم للفظ دون آخر، وقبولهم لاسم ورفضهم لآخر.

الشرط الثالث الذي رآه البلاغيون والنقاد لفصاحة الكلمة بعدها عن الغرابة والوحشية، ذلك لأنهم يرون الفصاحة في البيان والظهور، وأن اللفظ الوحشي الغريب يتنافى مع

هذا البيان، ويحول بين المتلقي والوصول إلى المعنى. ومن العبارات التي وردت عنهم قولهم في الكلام البليغ إنه الكلام الذي يسابق معناه لفظه. وذلك لايتحقق من خلال اللفظ الذي لايتضح معناه، لقلة استعماله أصلا، أو لبعد هذا الاستعمال.

ومن خلال هذا الشرط وجدوا كلمة «كهل» في قول أبي تمام:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه   بلا طائر سعد ولاطائر كهل

غير حسنة لأن هذه الكلمة من غريب اللغة وحسبها غرابة وبعدا أن يكون «الأصمعي» لم يعرفها. كما أنه لم يعثر عليها إلا في شعر بعض الهذليين. وهو قول أبي خراش الهذلي:

فلو كان سلمى جاره أو أجاره   رماح ابن سعد ردّه طائر كهل

ولانريد أن نستطرد في ذكر الأمثلة المردودة. ذلك لأن غايتنا أن نكون تمثلنا بالنماذج الجيدة التي تسهم في تربية الذوق. ونحيل القارىء إلى كتب البلاغة والنقد إن كان يريد الوقوف على هذه الأمثلة، ويبتغي المزيد منها. لكن من المهم أن نقول: إن الكلمة الغريبة لم يتقبلها نقاد العرب القدامى. واشترطوا في عمود الشعر «جزالة اللفظ» وفسروا هذه الجزالة بأن تكون الألفاظ بحيث يفهمها العامة عند سماعها، ولايتمكنون من استعمالها. وهم بطبيعة الحال يقصدون العامة في زمانهم لازماننا.

ونحن لانقبل هذا الشرط على إطلاقه، لأن اللفظ الذي يعد غريبا يمكن أن يتهيأ له الشاعر المفلق، والأديب النابه الذي يهيىء له وسطا لغويا، يغطّي على وحشته ويزيل غرابته، ويجعله متمكنا في مكانه بحيث لايغني غناءه لفظ سواه. وشاهدنا على ذلك ماجاء من غريب القرآن الكريم. ولنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى: «تلك إذا قسمة ضيزى» فكلمة ضيزى من الكلمات الغريبة، ولكنها في الآية أصبحت واضحة المعنى، تكشف عما وراءها. ولايمكن أن يحل في هذا السياق أي مرادف لها. ونحن نهتدي في هذا القول ببعض العبارات المختصرة التي ذكرها علماؤنا القدامى، فعبد القاهر الجرجاني يرجع البلاغة كلها إلى النظم. ونحن نقرأ فيما ورد عنهم قولهم «للكلمة مع أختها مقام»، «ووضع الكلمة مع افقها». أو غير ذلك من العبارات التي لانجد فيها تفسيرا [illegible] اهتمامهم بالسياق ومايتطلب ويقتضيه. ونعود مرة أخرى إلى الصمة بن عبد الله الذي ذكر كلمة «أخدع» فقد قالوا إن هذه الكلمة لم ترد حسنة في الشعر كما في هذا الموضع، فقد ذكرها في قصيدته التي يقول فيها:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت   مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا   وتجزع أن داعي الصبابة أسمعا
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى   وقل لنجد عندنا أن يودعا
وليست عشيات الحمى برواجع   إليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عيني اليسرى فلمّا نهيتها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني   وجعت مع الإصغاء ليتا وأخدعا

فماذا حسن هذه الكلمة وجعلها مقبولة مرضية غير هذا الوسط اللغوي الذي آخى الشاعر بينه وبين هذه الكلمة؟ وهذا الموضوع الذي جعلها تعبر مع زميلاتها عنه؟

وابن سنان الخفاجي يشير إلى شيء قريب من هذا، وإن كان قد اهتم بجانب الألفاظ، وفصل القول فيها. وذلك في تعليقه على قول أبي نصر عبد العزيز بن نباته

أقام قوام الدين زيغ قناته   فأضحى كمثل الخطي [illegible]

فهو يعلق على ابتذال كلمة ((فطير)) وعاميتها وعدم فصاحتها فيقول: ((فتأمل لفظة فطير)) تجدها عامية مبتذلة، وإن كانت لعمري قد وقعت هنا موقعا لو كانت فصيحة هجّنها وأذهب طلاوتها)) (١٨) .

ومثل هذا الذي ذهبنا إليه نقوله فيما يتعلق بعدم عامية اللفظ وابتذاله، وهو الشرط الرابع الذي اشترطوه لفصاحة الكلمة. وهذا الشرط أيضا يدخل فيما أطلقوا عليه عمود الشعر. وقد سبقت الإشارة إلى أنهم فسروا جزالة اللفظ بنفور العامة له وتأبيه على استعمالهم. وقد ساقوا أمثلة لعامية اللفظ وابتذاله، منها البيت الذي قدمناه لابن نباته، وتعليق ابن سنان على بعض أقوال الشعراء التي تضمنت ألفاظا عامية تدل على عدم تسامحهم في استعمال مثل هذه الألفاظ.
فهو يعلق على قول أبي الطيب:

حلوقية في خلوقيها   سويداء من عنب الثعلب

بقوله: فإن عنب الثعلب مما أقول إن العامة لو نظمت شعرا لترفعت عن ذكره)) كما يعلق على قول أبي تمام:

قد قلت لما لج في صده   المستخف على عبدك يا قابري

بقوله: ((إن قابري غاية في السخافة، وهو من ألفاظ النساء وأشباههن)) ولسنا مع من يزعم أن صنيع البلاغيين القدامى ــ فيما يتعلق بالفصاحة ــ واشتراطهم فيها الترفع عن ألفاظ العامة مما يؤدي إلى طبقية في الألفاظ، وأن استخدام مثل هذه الألفاظ يقرب الشعر من لغة الواقع، أو أن الموقف يتطلبها، لأن الموقف إذا تطلبها، وصارت جزءا منه، فمعنى ذلك أن الأديب أضاف لها خصوصية رفعتها من لغة العامة، وجعلتها لغة أدبية، وهذا لايتسنى لكل

كتابخانه ومركز اطلاع رسانی

أديب. والخطر منه شديد لأنه يؤدي إلى فتح الباب أمام مدعي الأدب بحجة القرب من الجماهير أو التعبير عما يشعرون به من خلجات وأحاسيس. وحسبنا أن نعود إلى الأبيات التي نبه النقاد والبلاغيون على وحشية الألفاظ أو سوقيتها وسوف نجد أنها لا تؤدي إلى مثل هذه المزاعم.

والشرط الخامس من شروط الفصاحة يتعلق بتعبير اللفظ عن معناه وموافقته لقوانين اللغة في التصريف والاشتقاق والجمع. وقد جعل ابن سنان (١٩) هذه الأمور شيئا واحدا. فقال «والخامس أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة. و يدخل في ذلك كل ماينكره أهل اللغة، و يرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة «ومن الخروج على العرف العربي أن تكون اللفظة بعينها غير عربية الاستعمال، ولهذا أنكروا قول أبي الشيص:

وجناح مقصوص تحيف ريشه ريب الزمان تحيف المقراض

فقد استعمل في هذا البيت لفظ «المقراض» وقد قالوا إنه ليس من كلام العرب (٢٠). لكن هل من المحظور على الشاعر أن يستعمل لفظا غير عربي، لأن استعماله لمثل هذا اللفظ يخل بالفصاحة؟ عبارة ابن سنان الخفاجي توحي بمثل ذلك لكنا نذهب إلى غيره، ونرى جواز هذا الاستعمال، شريطة ألا يوجد لفظ عربي يؤدي الغرض المراد. كما نشترط في اللفظ الدخيل أن يأتي على طريق اللغة، وقياسها في الألفاظ. أي أن يصبح على نسج العربية، ولسنا في حاجة لبيان مايدخل هذه اللغة أو تلك من غيرها، ومايحدثه ذلك من نمو اللغة المقترضة وثرائها. لكنا نقول: إن من أقوال القدامى مايدل على أن اللغة العربية أخذت بعض الألفاظ عن غيرها من اللغات. ولهذا يصادفنا في كتبهم عبارة «لفظ دخيل» ولفظ مُعرّب. كما أن بعض العلماء يقول: إن هذه الألفاظ غير العربية ورد شيء منها في القرآن الكريم. من أمثال سجيل ومشكاة. أباريق استبرق. اليم. الطور) وعلى الرغم مما يراه علماء آخرون من القول بغير هذا من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى الذي أنكر وجود كلمات غير عربية بين ألفاظ القرآن الكريم. وقولته المشهورة في ذلك (من زعم أن في القرآن لسانا سوى العربية فقد أعظم على الله القول) «على الرغم من ذلك نقول: إن العربية ليست بدعا من اللغات. إنها كغيرها تُعِير وتَسْتَعِيرُ، لكن اللفظ الذي تستعيره العربية. وتجعله على صيغها وأبنيتها في الألفاظ يصبح لفظا عربيا. وعلى فرض صحة ماذهب إليه ابن عباس وعكرمة ومجاهد من وجود ألفاظ من غير اللسان العربي في القرآن الكريم. وقبل ذلك في الشعر الجاهلي و بعد ذلك في الشعر الاسلامي، و بخاصة في الشعر العباسي، لايكون أمامنا سوى القول بأن اللفظ المعرب يشترط فيه ليكون فصيحا أن يكون مماثلا للألفاظ العربية في أوزانها وأن يكون متجانسا مع الوسط اللغوي الذي ورد فيه. ونظرة واحدة إلى تلك الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم تؤكد ماذهبنا إليه: فلفظ

«سجيل» ورد في قوله تعالى: وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود»(٢١) يقول الزمخشري (٢٢) في «سجيل» قيل هي كلمة معربة من (سنككل) بدليل قوله ــ حجارة من طين ــ وقيل هي من أسجله إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين، و يدل عليه قوله ــ لنرسل عليهم حجارة». وليست هذه الصيغة غريبة عن العربية. كما ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: «فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»(٢٣) وقوله تعالى: «وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل (٢٤) ولفظ (مشكاة) يمكن أن نجد له نظائر كثيرة على وزنه مثل «مصفاة» ومبراة، ولفظ (أباريق) نجد له أيضا نظائر في وزن مفاعيل كتماثيل ومحاريب ــ وأعاجيب. وغيرها فهذه الألفاظ وإن كانت في أصلها غير عربية «حورت» حتى أخذت الشكل العربي والنسج العربي، ولها نظائر في العربية. وتبقى القضية ــ فيما إذا كانت هذه الألفاظ معبرة عن المعنى الذي جاءت للتعبير عنه أو غير معبرة، وما إذا كان السياق يقتضيها وأن غيرها لا يغني غناءها، أو أن ذلك ممكن. حقيقة وردت في الشعر ألفاظ حاول الشعراء إدخالها في اللغة، ونجح بعضهم في هذا، وأخفق بعضهم الآخر. ومن الأمثلة التي أخفق فيها الشعراء قول الشاعر:

عليه ديابوذ تسربل تحته   أرندج أسكاف يخالط عظلما (٢٥)

فمعنى البيت مستغلق بسبب تلك الكلمات الدخيلة. وانغلاق المعنى لانجده في الكلمات التي وردت في القرآن الكريم. لأنها تنسجم مع السياق، وتأتي وهي جزء أساسي فيه. وقد تكون الكلمة عربية، ولكنها غير فصيحة وذلك لأن مستخدمها يعبر بها عن غير المعنى الذي تعبر عنه. ولعلنا نذكر قول طرفة بن العبد حين سمع بيت المتلمس

وقد أتناسى الهم عند ادكاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال: استنوق الجمل. فذلك لأن المتلمس أطلق على جمله صفة من صفات النوق، ووقع أبو تمام في خطأ شبيه بهذا حين عمي عليه الأمر في معنى «الأيم» فقال:

حلت محلّ البكر من معطى   وقد زفّت من المُعطى زِفافَ الأيم

وتابعه البحتري في ذلك فقال:

يشق عليها الريح كل عشية   جيوب الغمام بين بكر وأيم

فكلمة «الأيم» استخدمها أبو تمام في غير معناها. وهو «الثيب» وقدا قالوا: إن الأيم التي لازوج لها بكرا كانت أو ثيبا. أما «الثيب» فهي المرأة التي دخل بها وفارقها ومن الواضح ان الثيب أخص. وقد أراد أبو تمام أن يقابل بين البكر والأيم، والمقابلة الصحيحة تكون بين البكر والثيب. وكذلك الأمر بالنسبة لبيت البحتري. فهو قد استخدم «الأيم» بمعنى الثيب. وقد جاء القرآن الكريم بالاستعمال الصحيح في قوله تعالى: «وأنكحوا الأيامى منكم

والصالحين من عبادكم وإمائكم «فليس مراد الله سبحانه الأمر بنكاح الثيبات من النساء دون الأبكار، وإنما يريد النساء اللواتي لا أزواج لهن(٢٦).

وقد جاء على اللغة الصحيحة أيضا قول الشماخ بن ضرار:

يقرّ بعيني أن أحدث أنها   وإن لم أنلها أيم لم تزوج

ويناقش القاضي الجرجاني مفهوم هذا اللفظ واستعماله، ويلتمس له مسوغا من جهة استعماله، إذ خصصه التعارف بأحد استعمالاته. «وعادة الاستعمال في اللغات مقدمة على حقائقها، وهي أولى بالظاهر من أصولها» (٢٧).

وتجدر الاشارة إلى مايتضمنه كلام القاضي الجرجاني في هذه الفقرة، لأنه يعطي أهمية للاستعمال، ويقدمه على حقائق اللغة، ويجعله أولى بالظاهر من أصولها. وهذا يعني ضرورة الاعتراف بما يعتري اللغه من تطور عن طريق الاستعمال. ومن هذا الضرب أيضا قول أبي عباده البحتري:

شرطي الإنصاف إن قيل اشترط   وصديقي من إذا صافى قسط

فهو يريد بقوله «قسط» عدل، ومعناها جار أما عدل فيعبر عنها «بأقسط» قال تعالى: «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» (٢٨).

ومن هذا النوع الذي تستعمل فيه الكلمة في غير معناها الصحيح قول أبي تمام:

مامقرب يختال في أشطانه   ملآن من صلف به وتلهوق

ذلك لأن أبا تمام يريد بالصلف هنا الكبر والتيه. وهذا المعنى مذهب العامة في استعمال اللفظ أما استعماله العربي الصحيح فيعبر به عن عدم حظوة أي من الزوجين عند الآخر. تقول: صلفت المرأة أي لم تحظ عند زوجها، وصلف الرجل إذا كرهته. وقد جاء عليه قول جرير:

إني أواصل من أردت وصاله   بحبال لاصلف، ولا لوّام

ومعناه أنني أحافظ على صلتي بمن أريد، دون كره له، أو توجيه لوم إليه.

ويجعل ابن سنان: الخفاجي حذف حرف من الكلمة، أو زيادة حرف عليها، أو إبدال حرف بآخر، أو التضحية بالاعراب من الأمور التي تخل بفصاحة اللفظ، وإن كان يجعل عيوب الكلمات من هذه الجهة متفاوتا. فليست عنده في القبح أو في البعد عن الفصاحة بدرجة واحدة لكنه لايسمح بما يسمح به غيره، وبما أجازه بعض النقاد في الضرورة وفي هذا تضييق على الشعراء.

كما يجعل استعمال كلمة على الوجه القليل الشاذ معيبا، ومن هذا القليل الشاذ قول البحتري:

متحيرين فباهت متعجب   مما يرى أو ناظر متأمل

فكلمة «باهت» التي وردت في البيت جاءت على اللغة الرديئة الشاذة، والعربي المستعمل بهت الرجل يبهت، فهو مبهوت.

ومن هذا القليل الشاذ أيضا استعمال «اللذ» في الذي، وقد وردت في قول المتنبي:

وإذا الفتى طرح الكلام معرضا   في مجلس أخذ الكلام اللذ عنا

ومن هذا الصنف أيضا قوله:

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو   عقمت بمولد نسلها حواء

وقد أضاف المتنبي إلى سوء نسج البيت وضعفه استعمال «ذا» التي لا يظهر لها أي حسن في موضعها. وقد كان المتنبي يكثر من استعمال اسم الاشارة في شعره كثرة لفتت النقاد إلى هذا العيب في شعره، ودفعت القاضي الجرجاني الذي حاول إنصافه في كتاب الوساطة إلى النص عليها، وعلى ما لها من أثر سيء في صنعة الشعر فقال: «وقلت وهو أكثر الشعراء استعمالا «لذا» التي هي للإشارة وهي ضعيفة في صنعة الشعر، دالة على التكلف، وربما وافقت موضعا يليق بها، فاكتسبت قبولا (٢٦) وقد كان القاضي الجرجاني يعلق بهذا الكلام على قوله:

وقد بلغت الذي أردت من البر   ومن حق ذا الشريف عليكا
وإذا لم تسر إلى الدار في وقتك ذا خفت أن تسير إليكا

الشرط السادس في فصاحة اللفظ خلوه من الإيحاء القبيح، فلو عبر الشاعر بلفظ من الألفاظ عن معنى، وكان لهذا اللفظ استعمال ممقوت، كان هذا اللفظ غير فصيح. ولهذا الشرط يجعل ابن سنان: قول الشريف الرضي:

أعزز علي بأن أراك وقد خلت   من جانبيك مقاعد العواد

قبيحا. وهو يعلق عليه قائلا: «فإيراد ــ مقاعد ــ في هذا البيت صحيح، إلا أنه موافق لما يكره

ذكره في مثل هذا الشأن، لاسيما وقد أضافه الى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد، ولو انفرد كان الأمر سهلا، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لاخفاء به».

ومما قلت فصاحته للعلة نفسها قول أبي تمام:

متفجر نادمته فكأنني   للدلو أو للمرزمين نديم

«فالدلو» أحد البروج، ولكن قبحه استعماله بالمعنى المعروف. ولاشك أن استعمال لفظ له إيحاء سيء، أو في معنى تعافه النفس مما يقلل من قيمة الشعر وكأننا بالبلاغيين بوضعهم هذا الشرط في فصاحة اللفظ يطلبون من الشعراء أن يلاحظوا دلالة الألفاظ وماطرأ عليها من تغير، وأنهم من جهة أخرى يعترفون بتطور الدلالة وتغيرها من عصر لآخر.

الشرط السابع في فصاحة اللفظ اعتداله وعدم كثرة حروفه. ولعل هذا الشرط يؤيد ماذهبنا إليه في كلمة «مستشزرات». ولهذا عدوا قول أبي الطيب المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها

فكلمة «سويداواتها» كلمة بالغة الطول. وذلك يقلل من فصاحتها.

هذه الشروط أهم مانرى في فصاحة اللفظ، وإن أضاف إليها ابن سنان شرطا آخر هو أن تكون مصغرة في موقف يعبر بها عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أومايجرى مجرى ذلك. لكنا نرى عدم اشتراط مثل ذلك، لأننا عندما نقول وضع اللفظ الموضع الذي يتطلبه ويقتضيه يدخل ذلك الشرط فيه فإذا كان التصغير للملاحة أو نحوها فالأفضل أن يعبر به. وقد أجاد الشريف الرضى التعبير في قوله:

يولع الطلّ بردينا وقد نسمت   رويحة الفجر بين الضال والسلم

ونجمل ماذكرناه في فصاحة اللفظ، في خلوه من التقارب الشديد في مخارج حروفه ومن الاضطراب وعدم التآلف في ترتيب هذه الحروف، وفي موافقته للمعنى المراد التعبير عنه، وجريانه على قوانين اللغة في التصريف والجموع والاشتقاق وعدم خروجه عن المألوف من الصيغ العربية لكونه أعجميا لم يأخذ الشكل الذي ترتضيه العربية في صيغها، وملاءمته لنمط العربية في الميل إلى قلة الحروف وأن يكون فوق هذا كله ملائما للموقف الذي يعبر عنه، ولايحمل إيحاء لاترتضيه النفس، أو يكون قد استعمل في مثل هذا المعنى.

بم تكون الفصاحة في التراكيب ؟

كما اشترط البلاغيون الفصاحة في اللفظ مفردا اشترطوا ذلك في التراكيب، وقالوا إن اللفظ قد يكون فصيحا لاعيب فيه، لكن عندما يدخل التركيب يكون قلقا غير متمكن. وقد أثرت عنهم عبارات كثيرة في هذا الشأن، منها ماسبقت الإشارة إليه من قولهم «للكلمة مع صاحبتها مقام» و«اللفظ مع لفقه» «والألفاظ تتآخذ» وغير ذلك من العبارات. وقد كان اهتمامهم منصرفا إلى هذه الناحية في كثير من الأمور التي وجهوا فيها النقد لهذا الشاعر أو ذاك، لأنهم تطلبوا في الألفاظ أن تتآزر في الأداء الفني. وسوف نتناول الشروط التي رأوا ضرورة تحققها في التراكيب لتكون حسنة الأداء، جيدة التوصيل، ومن ثم تسهم في تحقيق البلاغة.

«فالدلو» أحد البروج، ولكن قبحه استعماله بالمعنى المعروف. ولاشك أن استعمال لفظ له إيحاء سيء، أو في معنى تعافه النفس مما يقلل من قيمة الشعر وكأننا بالبلاغيين بوضعهم هذا الشرط في فصاحة اللفظ يطلبون من الشعراء أن يلاحظوا دلالة الألفاظ وماطرأ عليها من تغيير، وأنهم من جهة أخرى يعترفون بتطور الدلالة وتغيرها من عصر لآخر.

الشرط السابع في فصاحة اللفظ اعتداله وعدم كثرة حروفه. ولعل هذا الشرط يؤيد ماذهبنا إليه في كلمة «مستشزرات». ولهذا عدوا قول أبي الطيب المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها

فكلمة «سويداواتها» كلمة بالغة الطول. وذلك يقلل من فصاحتها.

هذه الشروط أهم مانرى في فصاحة اللفظ، وإن أضاف إليها ابن سنان شرطا آخر هو أن تكون مصغرة في موقف يعبر بها عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أومايجرى مجرى ذلك. لكنا نرى عدم اشتراط مثل ذلك، لأننا عندما نقول وضع اللفظ الموضع الذي يتطلبه ويقتضيه يدخل ذلك الشرط فيه فإذا كان التصغير للملاحة أو نحوها فالأفضل أن يعبر به. وقد أجاد الشريف الرضى التعبير في قوله:

يولع الطل بردينا وقد نسمت   رويحة الفجر بين الضال والسلم

ونجمل ماذكرناه في فصاحة اللفظ، في خلوه من التقارب الشديد في مخارج حروفه ومن الاضطراب وعدم التآلف في ترتيب هذه الحروف، وفي موافقته للمعنى المراد التعبير عنه، وجريانه على قوانين اللغة في التصريف والجموع والاشتقاق وعدم خروجه عن المألوف من الصيغ العربية لكونه أعجميا لم يأخذ الشكل الذي ترتضيه العربية في صيغها، وملاءمته لنمط العربية في الميل إلى قلة الحروف وأن يكون فوق هذا كله ملائما للموقف الذي يعبر عنه، ولايحمل إيحاء لاترتضيه النفس، أو يكون قد استعمل في مثل هذا المعنى.

بم تكون الفصاحة في التراكيب ؟

كما اشترط البلاغيون الفصاحة في اللفظ مفردا اشترطوا ذلك في التراكيب، وقالوا إن اللفظ قد يكون فصيحا لاعيب فيه، لكن عندما يدخل التركيب يكون قلقا غير متمكن. وقد أثرت عنهم عبارات كثيرة في هذا الشأن، منها ماسبقت الإشارة إليه من قولهم «للكلمة مع صاحبتها مقام» و«اللفظ مع لفقه» «والألفاظ تتآخذ» وغير ذلك من العبارات. وقد كان اهتمامهم منصرفا إلى هذه الناحية في كثير من الأمور التي وجهوا فيها النقد لهذا الشاعر أو ذاك، لأنهم تطلبوا في الألفاظ أن تتآزر في الأداء الفني. وسوف نتناول الشروط التي رأوا ضرورة تحققها في التراكيب لتكون حسنة الأداء، جيدة التوصيل، ومن ثم تسهم في تحقيق البلاغة.

وأول الشروط التي وضعوها لذلك خلو التركيب من التنافر بين الكلمات إما لأنها باجتماعها تحدث ثقلا في النطق، أو لفقدها الانسجام الموسيقي فيما بينها

وقد تكون خالية من ذلك في حال إفرادها، لكن الثقل والتنافر يطرأ عليها بالضم.

ومن الأمثلة التي استشهدوا بها لذلك قول أحدهم:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ومن الواضح أن البيت يتكون من كلمات تتقارب مخارج حروفها، و يزيد عليه بالتكرار الممقوت لغير هدف فني أو جمالي

ومنه أيضا قوله الآخر

لو كنت كتمت الحب كنت كما
كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وقول أبي الطيب المتنبي

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولاضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وأي قارىء يتمتع بقدر من الذوق يدرك للوهلة الأولى سوء النظم، ورداءته وقبحه. بل إن بيتا من هذه الأبيات قد يسيء إلى عمل جيد في جملته.

وعلى الرغم من حرص ابن سنان على الفصاحة، وعدم تسامحه مع الشعراء فيما تسامح فيه غيره مما أطلق عليه «الضرورة» نجده لايقف مثل هذا الموقف في **قول أبي الطيب**:

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون، وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد

و يقول: «فليس هذا التكرار عندي قبيحا. لأن المعنى المقصود لايتم إلا به، وقد اتفق له أن ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف. لأن أبا الهيجاء هو عبد الله ابن حمدان ابن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد، ولو ورد الكلام نثرا لم يرد إلا على هذه الصفة، فلما عرف في هذا التكرار معنى لايتم إلا به سهل الأمر فيه، وكان البيت مرضيا غير مكروه، وفي ذلك يجب أن يحمل كل تكرار يجرى هذا المجرى (٣٠). وهذا القول من ابن سنان يحمل دلالات لانقبلها في الشعر. فهو أولا سوى بين الشعر والنثر. ومادام المعنى الذي أراد المتنبي أن يعبر عنه إذا ورد نثرا لم يرد الا على هذا النحو فهو عند ابن سنان مقبول في الشعر.

وهو من جهة أخرى يجعل المقصود في الشعر المعنى. ومادام المعنى قد تم على هذه الصفة فلاعيب فيه. لكننا من جانبنا نرى هذا الشعر غير حسن وخاليا من الفصاحة لأن وظيفة الشعر لا تنحصر في أداء المعنى، ورصف الكلمات على هذا النحو، وذكر أسماء لا تهم أحدا غير أبي الهيجاء هذا الذي ذكر المتنبي آباءه وأجداده. إننا نستحسن التكرار في الشعر إذا كان يحمل قيما موسيقية تساعد على الإيحاء وتقوي منه، أو كان فيه إشارة إلى شعور نفسي عند الشاعر، أما أن يكون التكرار لمجرد ذكر نسب الممدوح فذلك مالانقبله، وبخاصة إذا كانت الحروف تتكرر وتتشابه فيه على نحو مانجد في البيتين السابقين. ومن جهة أخرى لسنا مع أولئك الذين ينحازون إلى جانب المعنى في الشعر، ونعيد عليهم مقال الجاحظ، الذي ارتضاه عبد القاهر الجرجاني وهو أن الشعر ضرب من النسج ونوع من التصوير وأن للشعر لغته الخاصة التي تتميز بالإيحاء. ولسنا نجد شيئا من ذلك في البيتين.

وكثيرا ما [illegible] المتنبي في صياغة التراكيب [illegible] من التعقيد اللفظي والمعنوي، والتعقيد يصيب الشعر من جهة نظمه، والتقديم والتأخير فيه بما يخالف قوانين اللغة في التراكيب ولغير غاية [illegible] أو جمالية. فمثل ماساء فيه النظم حتى أفسده وعفى على معناه من سماحة هذا المعنى وبساطته قول المتنبي:

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

فمعنى البيت: كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد، والثقلان أنت والعكبري يقول: ((في هذا تعسف، لأنه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة ابتدائية أجنبية)) وأصل الإعراب: أبوك محمد. وهو مبتدأ وخبر. وقد فصل بينهما بجملة والثقلان أنت. والأولى أن يكون الضمير مبتدأ والثقلان خبر عنه. وقد حدث التعقيد نتيجة للفصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية، وتقديمه الخبر على المبتدأ وليس مشتقا، أو شبه جملة. ولو كان المتنبي فعل ذلك لمعنى مبتدع لم يسبق إليه لاحتمل ذلك منه. لكن هذا المعنى عبر عنه أبو نواس قبله تعبيرا جيدا حيث قال:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقد أفاد من هذا البيت أبو تمام في اعتذاره إلى أحمد بن أبي داود. وقال له: أنت جميع الناس، ولاطاقة لي بغضب جميع الناس.

ومما فسد نظمه واستغلق معناه قول الشاعر:

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

وفساد النظم مرده إلى عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة، والشاعر يريد أن يقول: لو أن

واحدا من الناس يخلده مجده لخلد مطعمها جوده. لكننا لانصل إليه إلا بعد مشقة. ولانجد سببا هذا سوى مخالفته لعرف اللغة في عود الضمير. وحتى لاتحدث مثل هذا التعقيد في البيت يتقدم المفعول به على الفاعل في قوله تعالى: «وإذا ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات».

ويذهب الدكتور محمد مندور(٣١) إلى أنه «يباح الخروج على القواعد لكبار الأدباء الذين لايعدلون عنها إلا عن قصد وبينة، وذلك لأن أمثال هؤلاء يحتج على اللغة بهم، ولايحتج باللغة عليهم مادامت اللغة كائنا حيا تتطور وعقلية من يتكلمونها» ويؤيد ماذهب إليه ماتميز به بعض كتاب الغرب بما في أسلوبهم من نتوء لايعدو أن يكون خروجا على الدارج من الاستعمالات والتراكيب «وهذا النفر نطلق على الطريقة التي يبنون بها عباراتهم «كسر البناء» ومن النقاد وبخاصة في الغرب من يرون أن اطراد الصحة اللغوية بمعناها الدارج لايصدر عنه إلا أسلوب مسطح لاجدة فيه ولارونق له. وهم يؤيدون رأيهم بالحقيقة الإنسانية المعروفة من أن الكمال المطلق ممل في ذاته، وأنه من الخير أن تأخذ الكتاب من حين إلى حين نزوة من شيطان الأدب تخرج بهم عن التعبير المألوف، كما تصيبهم نفس النزوة أحيانا في مجال الفكر، فلايأتون بالفكرة التي يوجبها السياق، بل يصدمون القارىء بما لايتوقع، فتتمسح أعصابه، ويمضي الدكتور مندور في بيان فكرته مدعيا أن القرآن الكريم نفسه «فيه خروج في غير موضع على قواعد النحو الشكلية، ولقد التمس علماء البلاغة لأمثال هذا الخروج مبررات بلاغية» ومن بين الأمثلة التي يؤكد بها هذا الخروج أو يستشهد بها على هذه الحقائق ـــ كما يقول ـــ استعمال القرآن للافراد بدلا من التثنية في قوله تعالى: «فلايخرجنكما من الجنة فتشقى» أو بالإفراد عن الجمع في قوله تعالى: «واجعلنا للمتقين إماما» وكذلك تقديم الضمير على مايفسره في الآية: «فأوجس في نفسه خيفة موسى».

وعلى الرغم من أننا سنناقش الخروج على القاعدة إذا كان القصد من وراء ذلك غاية فنية جمالية، فإن ما استشهد به الدكتور مندور لايخدم الفكرة التي قدمها، ذلك لأنه لايمكن القول بأن القرآن الكريم خرج على القاعدة، لأن القرآن الكريم يحتج به على اللغة، ولايحتج باللغة عليه. ومن المؤكد أن القرآن الكريم كان من أهم المصادر التي قعدت اللغة على أساس منها. بالإضافة إلى ذلك لم يكن البلاغيون يلتمسون مبررات للخروج ـــ كما ذهب إلى ذلك، لكنهم كانوا يلتمسون معاني التعبير القرآني ودلالاته، ووجه الجمال فيه. والآيات التي مثل بها الدكتور مندور ليس فيها خروج، وهي تسير على القاعدة العامة فقوله تعالى: «فلايخرجنكما من الجنة فتشقى» الإخراج من الجنة واقع عليهما، أما الشقاء فإما أن يكون واقعا عليه. وهي تبع له يصيبها مايصيبه. أو أن الشقاء واقع عليه وحده، لما له من القوامة والإمرة عليها، والحماية

لها.. هكذا يقول الزمخشري (٣٢) ـ ونضيف إلى ذلك أن الأمر من الله سبحانه كان موجها إليه، والمخالفة ستسبب له الشقاء والألم النفسي. وقد تحقق التناسب بين الآية وغيرها من خلال هذا النسق. وفي الآية الثانية «واجعلنا للمتقين إماما» فيمكن أن يكون المراد الجنس، أو اجعل كل واحد منا إماما. وفي الآية الثالثة لامخالفة فالضمير يعود على متقدم في الرتبة وإن تأخر لفظا، وذلك جائز. إلا أن ماذهبنا إليه لايمنع أن يكون مرعيا في كل ماتقدم قيمة جمالية وهي التناسب.

ومن هذا الصنف المعيب لفساد نظمه وسوء ترتيب الكلام فيه قول الفرزدق:

وما مثله في الناس الا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

وهويقصد به :ليس في الناس حي يقاربه إلا مملكا هو أبو أمه (٣٣).

وخلاصة القول: أن فصاحة التركيب تتوقف في جانب منها في جريانها على قوانين اللغة في التراكيب. فلايفصل بين الأمور المتلازمة، ولايقدم من الكلام ويؤخر بالقدر الذي يعمي المعنى، ويجهد الذهن في الحصول عليه، وبخاصة إذا لم يكن هذا المعنى من المعاني المبتدعة النادرة، التي تستحق الكد والمعاناة.

إن المقصود بالفصاحة، والأصل فيها الظهور والبيان، ومالم يتحقق البيان في التركيب لسوء في ترتيب ألفاظه، أو مخالفته للأصول المقررة في علم النحو عُدَّ هذا الكلام غير فصيح.

ومما نراه يدخل في باب الفصاحة، تكمل به، وتختل بفقدانه اختلاف نسج العبارة ومعنى هذا أننا نرى من فصاحة العبارة استواء نسجها، وقد تحدث النقاد القدامى عن اختلاف النسج، وعابوا بعض الشعر لأنه اشتمل على ألفاظ متفاوتة. وقد تحدث القاضي الجرجاني حديثا طويلا في هذه المسألة، وهو ينتقد أبا تمام في إدخاله الكلمات الصعبة وسط الأسلوب الذي يجري فيه مع طبعه. فقال: «ومن جنايات هذا الاختيار على أبي تمام وأتباعه أن أحدهم بينما هو مسترسل في طريقته، جار على عادته يختلجه الطبع الحضري، فيعدل به متسهلا، و يرمي بالبيت الخنث، فإذا أنشد في خلال القصيدة، وجد قلقا بينها، نافرا عنها، وإذا أضيف الى ماوراءه وأمامه تضاعفت سهولته، فصارت ركاكة. وربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه، فينظم أحسن عقد، ويختال في مثل الروضة الأنيقة، حتى تعارضه تلك العادة السيئة، فيتسنم أوعر طريق، و يتعسف أخشن مركب، فيطمس تلك المحاسن، ويمحو طلاوة ماقد قدم. كما فعل أبو تمام في كثير من شعره. ومنه قوله:

لو حار مرتاد المنية لم يجد   إلا الفراق على النفوس دليلا
قالوا الرحيل، فما شككت بأنها   نفسي من الدنيا تريد رحيلا

الصبر أجمل غير أن تلذذا   في الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظنني أجد السبيل إلى العزا   وجد الحمام إذا إلى سبيلا
رد الجموح الصعب أسهل مطلبا   من رد دمع قد أصاب مسيلا
ذُكرتم الأنواء ذكرى بعضكم   لبكت عليكم بكرة وأصيلا
إني تأملت النوى فوجدتها   سيفا على أهل الهوى مسلولا

ثم عدل عن النسيب فقال:

لو جاز سلطان القنوع وحكمه   في الخلق ماكان القليل قليلا
من كان مرعى عزمه وهمومه   روض الأماني لم يزل مهزولا

«فهو كما ترى يعرض عليك الديباج الخسرواني ، والوشي المنمنم، حتى يقول:

لله درك أي معبر قفرة   لايوحش ابن البيضة الإجفيلا
أو ماتراها لا تراها هزة   تشأى العيون تعجرفا وذميلا

«فنغص عليك تلك اللذة، وأحدث في نشاطك فترة، وهذه الطريقة أحد مانعي على أبي الطيب» وإذا لم تكن هذه الأبيات متناسقة مقترنة، ولم تكن تجمعها قصيدة، وتسمع في حال واحدة لكان أخفى لعيبها، وأستر لشينها» (٣٤) ومن الواضح أن الأبيات الأولى التي خصصها أبو تمام للغزل تنساب في رقة وعذوبة فليس فيها كلمة غريبة، والألفاظ تكشف عن معانيها، فهو يتحدث عن الفراق ومايخلفه في قلوب الأحبة من أسى ومرارة، ومهما حاول المرء فيه التماسك أو العزاء لم يستطع ذلك، لأن أسباب الأسى والحزن أقوى من كل محاولة للصبر. وهل يستطيع الإنسان أن يمنع الدمع الذي انحدر من مآقيه. لكن الشاعر يعبر عن قسوة الفراق وآلامه، ومايخلفه في النفس بأنه الدليل الذي لايوجد دليل سواه على الموت. ثم يصور إحساسه عند سماعه لنبأ الرحيل بقوله: إنني أحسست بأنها نفسي توشك أن تفارق جسدي. أو إنني أحسست بأنه الموت يسري في هذا البدن.

وحتى بعد فراغه من النسيب، ومايكون فيه عادة من رقة اللفظ ، وسهولة العبارة نجده يتحدث عن القناعة وماتهيئه لأصحابها من رضا النفس واطمئنانها . والشاعر هنا يستلهم الحديث الشريف: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» وفي حال عدم الرضا والتطلع إلى الأشياء، والانسياق وراء شهوات النفس وأطماعها يبقى الإنسان في قلقه. وهمومه وأحزانه، مما يصيبه بالضعف والهزال. وقد صدق الجرجاني في تعليقه على هذا النظم، إنه يقدم لنا حتى الآن مايعجب و يروق و يلذّ سماعه ، ويحسن تلقيه . لكنه ينتقل نقلة فجائية، و يقطع اللذة عندما يقول:

لله درك أي معبر قفرة   لايوحش ابن البيضة الإجفيلا

أو ماتراها لا تراها هزة   تشأى العيون تعجرفا وذميلا

فهو ينتقل إلى وصف الناقة بسيرها، ويجمع في البيتين من الغريب مايثقلهما، و يظهر التباين بينهما وبين باقي الأبيات.

ومن الأمور التي تخل بفصاحة الكلام تداخل بعضه في بعض. وقد أطلق بعضهم على هذا الصنع مصطلح «المعاظلة» يقول ابن سنان(٣٥). «ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضا، وهذا هو «المعاظلة» التي وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى بتجنبها فقال: كان لايعاظل بين الكلام. لأن المعاظلة المداخلة «وقد مثلوا هذا التداخل في الكلام بقول أبي تمام:

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا   عنه فلم يتخون جسمه الكمد

ومعنى هذا البيت: خيانة أخ للصفاء نحو أخ خانه الزمان من أجل هذا الذي خان صفاءه، وهو لم يحزن على ذلك، أو يتأثر به. وهو معنى شديد الاستغلاق والسبب في هدا شدة التداخل بين الألفاظ. لكن قدامة بن جعفر يختلف مع غيره من البلاغيين في مصطلح «المعاظلة» حيث يراه الأخير في إدخال الكلام فيما ليس من جنسه، وماهو غير لائق به، ولايكون ذلك عنده إلا في فاحش الاستعارة(٣٦) وأرى صحة ماذهب إليه ابن سنان ومن قبله الآمدي، لأن قدامة فهم تداخل الكلام على أنه تعلق كل لفظة بما يليها، وإدخال كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها. وهذا النوع من الكلام محمود، وهو ما استجاده العلماء، وفضلوه ودعوا إليه «وهو مادلت عليه عباراتهم حين قالوا: هذا كلام يدل بعضه على بعض، و يأخد بعضه برقاب بعض. وهم لم يقصدوا فيه ذلك النوع الذي سبقت الإشارة إليه في قول أبي تمام، وإنما كان قصدهم اقتضاء بعض الألفاظ لبعض، ودلالتها على معناها دون كد للذهن أو اجهاد للعقل، ولعل عبد القاهر الجرجاني كان أعمق نظرا عندما تحدث عن بعض الصفات التي تطلق على الألفاظ وليس المراد بها اللفظ من حيث هو حروف وأصوات، وإنما المقصود به دلالته على معناه، وقد تحدث عن هذه المسألة أكثر من مرة. فقال: «ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ، ثم لا تعترضك شبهة، ولا يكون منك توقف في أنها ليست له، ولكن لمعناه، قولهم: لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولايكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك «وقولهم: يدخل في الآذان بلا استئذان، فهذا لايشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لايتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة»(٣٧) وهو يسوق الأمثلة التي تبين مراده، وتكشف عما قصد إليه. فمن الشعر الذي يسهل الوصول من خلال ألفاظه إلى مايعنيه قول ابن هرمة:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا   أبتاع الا قريبة الأجل

فالكناية في البيت واضحة، ومراد الشاعر ظاهر، ذلك لأنه يتحدث عن كرمه، ومن مظاهر هذا الكرم ابتياعه الناقة التي ولدت حديثا، وهو لايتركها ترضع ولدها المدة الكافية، ذلك لأنه يعجل بنحرها للأضياف.

ومثل ذلك في الوضوح وإن استخدم الشاعر طريقا آخر غير الكناية، وهو طريق الاستعارة قول النابغة:

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وكذلك ماجاء منه عن طريق التمثيل قول أبي نواس:

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المرّ من ثمره

وغموض المعنى وصعوبة الوصول إليه لايكون إلا بسبب قصور في اللفظ عن الأداء وضيق العبارة به. على الرغم من أن ألفاظه ليست غريبة في ذاتها. ولكن لأن نظمها غير سوي، وتأليفها غير مستقيم. ومما جاء على هذا النحو. قول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فإذا كان العباس بن الأحنف، قد دلّ على الفراق بسكب الدموع، ووفق في هذه التكنية ونجح في هذا التعبير، وجرى على مألوف العرب في مثل هذه الحال، فإنه انتقل من هذا إلى التعبير عن السرور بجمود العين، وليس الأمر على هذا النحو، فالمعروف أن جمود العين خذلان لصاحبها، ووقوف عن نصرته عندما يطلب هذه النصرة وجملة الأمر ــ كما يقول عبد القاهر ــ أنا لانعلم أحدا جعل جمود العين دليل سرور وأمارة غبطة، وكناية عن أن الحال حال فرح (٣٨).

وإذا كان قدامة بن جعفر يختلف مع جمهور البلاغيين في مفهوم «المعاظلة» وفيما إذا كان في فاحش الاستعارة كما يقول، أو أنها في تداخل الكلام وتعلق بعضه ببعض، فإن جوهر القضية ليس محل خلاف بينهم، ذلك أن أحدا من البلاغيين وقدامى النقاد لايرى الكلام حسنا إذا جاء مختل النظم لايكشف عن معناه إلا بعد جهد ومشقة، وبعد كدّ الذهن، والتماس الأوجه البعيدة في التفسير والتأويل.

ولاشك في أن تشبث بعض الكلام ببعض، وتعلق كل لفظة بما يليها، وإدخال كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها «وهو ماجاء عليه قول أبي تمام السابق، كما جاء عليه قوله:

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا   خاض الهوى بحرى حجاه المزيد

يختلف كل الاختلاف عن دلالة بعض الألفاظ على بعض، وأخذ بعضها برقاب بعض وأي واحد لديه بصر بالكلام، وإحساس به يدرك أن من النوع الثاني قول زهير بن سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا ــ لا أبالك يسأم

فصدر البيت يشير إلى عجزه، لأنه لما قال: ((ومن يعش ثمانين حولا)) وكان قبلها قد ذكر السأم، اقتضى أن يكون ختام البيت ((يسأم))

وكذلك قوله:

والستر دون الفاحشات وما   يلقاك دون الخير من ستر

فإن الستر في أول البيت، اقتضى الستر في آخره.

وقوله:

ومن لايقدم رجله مطمئنة   فيثبتها في مستوى الأرض يزلق

((فهذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعضه، و يأخذ بعضه برقاب بعض، وإذا أنشدت صدر البيت، علمت ما يأتي في عجزه، فالشعر الجيد أو أكثره ــ على هذا مبني، كما تقول الآمدي (٣٩) وكما تابعه على ذلك ابن سنان الخفاجي.

التناسب بين الألفاظ شرط من شروط الفصاحة:

يرى ابن سنان الخفاجي أن التناسب بين الألفاظ من الشروط التي تتوقف عليها الفصاحة وهو يبين ماتكون فيه المناسبة بين الألفاظ. وقبل أن أعرض لما جاء به في هذا الصدد أقول: ان كل مايؤدى إلى بلاغة الكلام يعد فصيحا، أو لم يقولوا إن كل كلام بليغ فصيح ولاعكس؟ وعلى هذا التوسع يمكن القول بأن الإصابة في التشبيه تساعد على فصاحة القول، ووقوع الاستعارة موقعها تساعد على بلاغة القول، وحسن التكنية عن المعنى يؤدى إلى نفس الغاية. ولاشك في أن التناسب بين الألفاظ إذا وقع موقعه ولم يكن هو الغاية المقصودة، ولم يكن له تأثير سلبي على المعنى يزيد من جمال القول و يساعد على فصاحته، ذلك لأن التناسب مبدأ من مبادىء علم الجمال وعلماء الجمال يرون الجمال في التناسب. وهذا هو السر في جمال الجناس والسجع والازواج، وغيرها من الفنون البديعية التي قال علماء البلاغة عنها إنها محسنات تعود إلى الألفاظ، أو أنها محسنات لفظية.

وقد ذكرها ابن سنان في الفصاحة لأنه ــ فيما يرى ــ جمع في كتابه كل مايؤدى إلى هذه الغاية، وأطلق على الكتاب ــ سر الفصاحة ــ ومن جهة أخرى لم تكن علوم البلاغة في وقته قد تحددت على هذا النحو الدقيق الذي نجده في ((مفتاح العلوم)) للسكاكي. لكنا سوف

ننتفع بما جاء به من التناسب في غير الفنون التي استقلت، والتي أصبح لها مصطلحها الخاص بها، وأفردت بالدراسة في علم البديع.

وقد أدرك الشعراء مايكون للتناسب من أثر فني، ووقع جميل في الأذن، فاهتموا به، وقصد بعضهم إليه، فسلم لهم حينا، وأضاف جمالا إلى المعنى بما له من وقع. وتأبى عليهم حينا، فكان أثره السيء على المعنى. و يدلنا على إدراك الشعراء لسر الجمال الفني في هذا النوع ماروى عن أبي الفتح عثمان بن جني الذي قال: «قرأت على أبي الطيب قوله:

وقد صارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق

فقلت له «قرحى» فقال: إنما قلت ــ قرحاً ــ لأني قلت ــ بهاراً»

وأبو الطيب المتنبي في هذا البيت يتحدث عن الفراق ومايحدثه من أثر عليه ومايخلفه من حزن في نفسه. فهذا الفراق قرّح جفونه من البكاء، وأحال مافي الخدود من حمرة تشبه حمرة الشقائق إلى صفرة في الخدود تشبه صفرة البهار. لقد أحاله الفراق من الصحة إلى الضعف. وقد وصف الأجفان بلفظ «قرحا» وقريح تجمع على «قرحى» ووزنه فعلى مثل «جريح» وجرحى، وصريع صرعى، وقتيل وقتلى، وذلك لأن وزن فعيل فيما يدل على علة يجمع على «فعلى» وأبوالطيب المتنبي يعدل عن صيغة الجمع عن وعي كامل بما يفعل. وهو ذلك مانبهه إليه أبو الفتح بن جنى، ولهذا يظهر له غايته وهي ملاحظة المناسبة بين «بهار» وقرحا.

و يقول ابن سنان(٤٠) في التناسب، وهو في معرض تعليقه على بيت المتنبي السابق: «فهذه المناسبة التي تؤثر في الفصاحة، والشعراء الحذاق والكتاب يعتمدونها. وكتب بعضهم «إذا كنت لا تؤتي من نقص كرم، وكنت لا أوتي من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدولا عن افتقار زلل، أو فتورا عن لم شعث واصلاح خلل فقد ناسب بين «نقص وضعف، وكرم وسبب، وعدول وفتور بالصيغ، وإلا فقد كان يمكنه أن يقول مكان نقص قلة فلايكون مناسبا لضعف، ومكان كرم جودا فلايكون مناسبا لسبب، ومكان سبب شكرا فلايكون مناسبا لكرم، ومكان فتور تقصيرا فلايكون مناسبا لعدول» ومعنى هذا أن المتحدث قد اختار كلمات يناسب بعضها بعضا من جهة صيغتها ومبناها. وكل كلمتين من الكلمات التي ذكرها تشتركان معا في وزن واحد. فنقص وضعف وزنها «فعل» وكرم وسبب وزنهما فعل. وعدول وفتور وزنهما «فعول» و بالإضافة إلى المناسبة بين الألفاظ توجد مناسبة بين الجمل وذلك كله يضفي على الكلام لونا من ألوان الجمال تجعل النفس تميل إليه، وتجعل المستمع يعجب به.

ومن هذا القبيل الذي تتحقق فيه المناسبة قول أبي تمام:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فقد ناسب بين مها، وقنا ــ والوحش والخط، وأوانس وذوابل من جهة الصيغة. وأبو تمام في بيته يصف امرأة بالجمال الذي يتمثل في اتساع العين، وذلك على عادة العرب ومألوفهم في وصف الجمال، حيث يشبهون المرأة بالمهاة أو يستعيرون النمط للتعبير به عن هذا الجمال، وكأنه يقول لنا هي مهاة الوحش في جمال عينيها، إلا أنها تخالفها بأنها من الأوانس كما أنها ممشوقة القوام كقنا الخط في استقامتها واعتدالها، إلا أنها تخالفها من حيث أن القناة ذابلة جافة. وهذا بعيد عن فتاته. لقد مدحها بأن خلع عليها الأوصاف الجميلة في كل من المهاة والقناة، وأبعد الصفات التي لا تتصف بالجمال، وذلك في محاولة منه لنفي أية مظنة أو شبهة للنقص فيها. وهو يفعل ذلك على الرغم من معرفته بأنه في حال التشبيه أو الاستعارة لا تنطبق كل صفات المشبه به أو المستعار على المشبه والمستعار له، وإنما ينصرف الذهن إلى مايناسب موقف الخطاب. على أية حال عُني أبو تمام ببيته، وحشد له قيما فنية تكفل له الحسن، وتجعله موضع الإعجاب. ومن هذه القيم ذلك التناسب الذي أقامه بين عدد من الكلمات فيه. ومن ذلك النوع أيضا قول البحتري:

فأحجم لما يجد فيك مطمعاً   وأقدم لما يجد عنك مهربا

وكثرة مثل هذا النوع في الشعر تدل بوضوح على التفات الشعراء إليه، وإدراكهم لقيمته الفنية وأثره في حسن الشعر وجودته.

ومن هذا النوع الذي يقع فيه التناسب و يكون له أثره السجع والازدواج وحسن التقسيم ولها مكانها الذي نفرده بالحديث عنها، لكنا فقط نشير هنا الى أمر له أهميته، وهو أن حسن هذه الوجوه وقف على تطلب الموقف لها، وعدم تغطيتها على المعنى أو غموضه، أو بعبارة أخرى لايكون ورودها لمجرد التلاعب اللفظي، وإنما يكون ورودها لحاجة المعنى إليها، ودون أن تتكسر العبارة، أو يحدث التعسف في الألفاظ من أجل أن تتحقق الحلية اللفظية على حساب المعاني.

التناسب ورد في القرآن الكريم

ولأن التناسب يقوى من تأثير الكلام، و يضيف جمالا إليه، ورد في القرآن الكريم في أكثر من صورة. وهو يظهر بوضوح في الفواصل التي جاءت في الكتاب الكريم، وكثير من سور القرآن جاء فيها هذا النوع قال تعالى: «والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا

جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء ومابناها، والأرض وما طحاها، ونفس وماسواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، كذبت ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها، فكذبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، ولايخاف عقباها ‹‹فقد جاءت فواصل السورة كلها على حرف الهاء الممدودة بالألف. وكذلك نجد هذه الظاهرة في غيرها من السور. وقد لاحظها القدماء، ووقفوا على تأثيرها. لكنهم اختلفوا حول تسميتها فأطلق عليها بعضهم فواصل، تحرجا من إطلاق اسم السجع عليها، وتشبيه كلام الله ــ سبحانه ــ بكلام الخلق، وحتى لايسمونه بما يتفق وسجع الكهان. وقد تعسف هؤلاء في تفسير المصطلح، وفرقوا فقالوا: ‹‹إن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها›› وبالغ الرماني فقال: ‹‹إن الفواصل بلاغة، والسجع عيب›› وعلل لذلك بأن السجع تتبعه المعاني. والفواصل تتبع المعاني (٤١). وليس الأمر على هذا النحو فليس كل سجع تتبعه المعاني. ومن السجع ما يأتي دون تكلف، ويكون تابعا للمعنى، وحسنه لايخفى على البصير وسوف نعالج هذه المسألة في موضع آخر. لكننا نقول إنه قد وردت أمثلة في القرآن الكريم تدل على قيمة التناسب، وقوة تأثيره. ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ‹‹والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حجر، ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد ‹‹فقد حذفت الياء من الفعل ‹‹يسرى›› ولفظ (الوادي) حتى تتفق مع الفواصل الأخرى، ويتم التناسب بينها. وكذلك تم التقديم في قوله تعالى: ‹‹ثم دنا فتولى››(٤٢) أي تدلّى فدنا، لأنه تدلّى للدنو، ودنا بالتدلّي(٤٣) وقوله تعالى: ‹‹واجعلنا للمتقين إماما(٤٤)›› أي اجعل المتقين إماما لنا لنكون نحن بعدهم إماما للمتقين ولسنا نرى مارآه بعضهم من إطلاق لفظ ‹‹قلب الغلط›› على مثل هذه الآيات، لأننا ننزه القرآن الكريم عن مثل هذه التسمية. لكننا لانرى ضيرا في القول بأن التقديم والتأخير حدث من أجل المعنى، والتناسب جزء منه، لأنه يؤثر فيه، ولغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم تجيزه إذا جاء على النحو المشار إليه. وقد جاء في المأثور من قول رسول اله صلى الله عليه وسلم. وهو من أفصح العرب، كما قال صلى الله عليه وسلم ‹‹أنا أفصح العرب بيد أني من قريش›› جاء في المأثور من قوله ماحافظ فيه على التناسب وترك فيه شيئا أخرى. فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام فيقول: ‹‹أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة›› وهذا كلامه صلى الله عليه وسلم يشتمل على السجع، ولكن حاشا أن يكون كسجع الكهان أو يكون متكلفا يضعف المعنى. كما قال صلى الله عليه وسلم من كل عين لامة ‹‹ولم يقل››

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

«ملمة» لقد خالف النبي صلى الله عليه وسلم الصيغة الصرفية لأجل المناسبة. وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: «ترجعن مأزورات غير مأجورات» ولم يقل مؤزرات على المستعمل، وذلك لأجل المناسبة ايضا. ولأن التناسب له قيمته في الأداء الفني تطلبوا في قوافي الشعر أن يتحقق فيها، وليس العيب الذي سمي بالإقواء، والذي وقع في شعر بعض الشعراء ليس إلا تركا للمناسبة التي كانوا يحرصون عليها في القوافي. ومثل هذا العيب. ورد في شعر النابغة الذبياني. وذلك في قصيدته التي أولها:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

فالقافية كما نرى مجرورة. لكنه قال بعد ذلك:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

فجاء بها مرفوعة. وتقول الروايات إن النابغة لم ينتبه لهذا العيب الفني في شعره حتى ذهب إلى المدينة فدفع أهلها بجارية تغني بهذا الشعر حتى إذا وصلت موضع الإقواء أطالت الصوت. وحين فعلت ذلك انتبه النابغة. وقال: ذهبت إلى المدينة وفي شعري عيب، وعدت وقد برئت منه. وثمة ملاحظة ساقها قدامة بن جعفر فيما يتعلق بالإقواء تشير إلى أمر له أهميته. ذلك لأنه يقول: ومن عيوب القافية «الإقواء» وهو أن يختلف إعراب القوافي، فتكون قافة مرفوعة مثلا، وأخرى مخفوضة. وهذا في شعر الأعراب كثير جدا، وفيمن دون الفحول من الشعراء. وقد ارتكب بعض الفحول الإقواء في مواضع، مثل قول سحيم بن وثيل الرياحي:

عذرت البزل إن هي خاطرتني فما بالي وبال ابن اللبون
وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين

وقال جرير:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرا وبني عبيد وأنكرنا زعانف آخرين

وقد بيّن قدامة أن هذا العيب (الإقواء) يقع في شعر الأعراب بكثرة، وفي شعر أولئك الشعراء الذين لم يصلوا إلى طبقة الفحول. وأن ذلك يقل في شعر كبار الشعراء. وذلك يدل على أنهم قد تمكنوا من فنهم، وأنهم وصلوا إلى المستوى الذي يدركون فيه قيمة التناسب والتوافق من الناحية الفنية. وهذا مالم يصل إليه غير الفحول لضعف في مستواهم الفني والأعراب لخشونة في طبعهم تحول بينهم وبين الإحساس بالقيم الجمالية ذات الأثر في الفن.

وقد بلغ حرص النقاد على تحقيق التناسب في القافية أن جعلوا من عيوبها ما أطلق عليه «السناد» وهو اختلاف في الحركات قبل حروف الروى. كما جاء في شعر عدى بن زيد:

ففاجأها وقد جمعت جموعا   على أبواب حصن مصلتينا
فقددت الأديم لراهشيه   وألفى قولها كذبا ومينا

فقد جاءت التاء في البيت الأول مكسورة، وجاءت الميم في البيت الثاني مفتوحة كما جعلوا من عيوب القافية بسبب ترك التناسب أن يأتي الروى على حرفين متقاربين كأن يأتي في قافية بيت بالميم، وفي قافية آخر بالنون.

وكل هذا لايدل على غير أمر واحد هو أن التناسب له قيمته الفنية في القول الجيد شعرا كان أو نثرا، وأن نقاد العرب القدامى، وعلماء البلاغة قد عرفوا قيمته الجمالية وأثره على المعنى، فعنوا به، وحرصوا عليه، ورأوا أي مظهر من مظاهر الإخلال به حطًّا من الفصاحة، ومقللا لها.

ويذهب أحد علماء اللغة المعاصرين إلى استبعاد أن يكون الإقواء قد وقع من الشعراء وأنهم حين نسبوا شعرهم وأنشدوه، أنشدوه بحذق في حركة الروى. وهو يرى أن ما حدث في حقيقة الأمر كان خطأ نحويا، أي أن الشاعر حافظ على التناسب، ولم ينتبه للخطأ النحوي. ومعنى هذا أن النابغة الذبياني حين أنشد قصيدته التي أشرنا إليها والتي يقول فيها:

أمن آل مية رائح أو مغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغراب الأسود

لم يخالف في القافية وأنا أميل الى هذا الرأي، ذلك لأن المخالفة في حركة الإعراب لابد أن تلفت نظر الشاعر. وهو بالتأكيد حريص عليها، وحرصه هذا قد يشغله عن ملاحظة الصحة اللغوية في التركيب. وعلى هذا يكون النابغة، قد حافظ على التناسب في بيتيه السابقين، ولم ينتبه لمخالفة الصفة لموصوفها في الإعراب، أو بعبارة أخرى انشغل الشاعر بالتوفيق بين حركة القافية في أبيات قصيدته، وبتحقيق التناسب بينها عن القاعدة النحوية التي تلزمه رفع كلمة (الأسود) لأنها صفة للغراب، وموقعها الرفع لأنها فاعل. وأن النابغة حين كان ينشد بيته بنفسه. كان ينشده بما يحقق التناسب، وكأنه لم يحدث فيه الإقواء ومثل ذلك يقال في بيتي جرير السابقين. وأبيات الفرزدق التي لحظ ابن أبي اسحاق الحضرمي مافيها من خطأ والتي يقول فيها:

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال الا مسحتا أو مجلف

وحين قال له ابن أبي اسحاق: علام رفعت (مجلف) أجابه بقوله: «على مايسوءك وينوءك. علينا أن نقول، وعليكم أن تعربوا، ثم هجاه بقوله:

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى مواليا

وقد يكون قول الفرزدق نوعا من التحدي لابن أبي اسحق وغيره من النحاة الذين يتعقبون الشعراء ، و يعيبون أخطاءهم، لكنه قد يكون أيضا إشارة إلى أهمية التناسب في القوافي، وتقديمها على صحة الإعراب

وهناك أمور أخرى مصدر الجمال فيها أن التناسب ملاحظ فيها وهي من المسائل التي اهتم بها علم البديع. وهي تستحق أن تفرد بالدراسة التي تميزها، لنرجع إلى مصادرها من علم الجمال الحديث . لكنا نشير إليها بإيجاز.

ومن بينها التصريع، وغالبا مايكون في مطالع القصائد، حيث يناسب آخر الشطر الأول من البيت قافيته. لكن الشعراء يصرعون أحيانا داخل القصيدة. وقد فعل ذلك امرؤ القيس في معلقته التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد جاء فيها :

أفاطم مهلا بعد هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

كما فعل هذا في غيرها من القصائد.

ومما يدخل في باب التناسب أيضا «الترصيع» وهو فن بديعي يجعل فيه الشاعر الجمل في البيت مسجوعة. وقد أطلقوا عليه ذلك المصطلح تشبيها له بترصيع الجواهر في الحلى. ومن أمثلته في النثر قول أبي علي البصير في بعض كلامه: حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا.

وكما قالت الخنساء في أخيها صخر:

حامي الحقيقة محمود الخليقة مهد   ي الطريقة نفاع وضرار
جوّاب قاصيه.. جزار ناصية   عقاد ألوية للخيل جرار

وكما قال الرصافي:

الموت أفجعها، والفقر أوجعها   والهم أنحلها، والغم أضناها

ومن التناسب مراعاة الترتيب بين الألفاظ، أو كما يقول ابن سنان الخفاجي(١٥) «حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب ليكون مايرجع الى المقدم مقدما، والى المؤخر مؤخرا. ومثال ذلك قول الشريف الرضي:

قلبي وطرفي منك هذا في حمى   قيظ وهذا في رياض ربيع

فالشريف الرضي يصف هذه المرأة بجمال المحيا، وحسن الطلعة للحد الذي يجعل العين تسعد بمرآها وتسر بمنظرها، كما تسر وتسعد بمنظر ورؤية الربيع، وهو يحبها حبا شديدا، لكنها لا تريح قلبه بالوصال، وتعذبه بالصد والدلال، فهو لهذا يعذب في حبها، وكأنها قد وضعت قلبه في حُمَّى القيظ، ولهيب النار. وموضع الشاهد فيه أن الشاعر قد ذكر الطرف والقلب، وذكر لكل منهما حالة تتصل به، وتخصه. فالقلب له العذاب، والطرف له السعادة بالرؤية. ولما كان القلب قد ذكر أولا، فقد ذكرت الصفة التي تتعلق به أولا، ولما كان الطرف قد ذكر ثانياً جاءت الصفة التي تتعلق به ثانيا. ولو لم يأت الأمر على هذا النظام لاختل النسق ولما تحقق التناسب.

وكذلك منه قول الآخر:

فباللامعات أسنة وأسرة   والمائسات ذوائب وقدود

والشاعر في بيته يتحدث عن رماح لامعة، ووجوه مشرقة، و يبدو أنه يمدح بهذا البيت و يصف ممدوحه بالشجاعة من جهة، و بشاشة الوجه وإشراقه من جهة أخرى، و يلاحظ أن ألفاظ الغزل في البيت تختلط بألفاظ المدح، لكن يهمنا أن نبين ماعمد إليه الشاعر من الترتيب حيث جاء بلفظ الذوابل قبل القدود، لأن الذوابل تتعلق بالأسنة، وقد ذكرت قبل الأسرة التي تتعلق بالقدود.

ونختتم الحديث عن التناسب ودوره في حسن الكلام وفصاحته. بما أشار إليه القدماء من تساوي الفقر في العبارة، بل من تساوى الفصول في الرسالة وغيرها. فهم قد استحسنوا الكلام إذا جاءت جمله متناسبة لاتختلف طولا وقصرا. وهم قد نظروا إلى ذلك في الشعر أيضا، وإن كان الشعر محكوما عن طريق البحر وما فيه من تفاعيل. والبيت في الشعر العربي في صورته التي تتابعت عليها العصور لا يختلف طولا وقصرا. لكن شيئاً آخر قد يدخل هذه الأبحر الشعرية. وهو ما أطلق عليه علماء العروض مصطلح «الزحاف» والنقاد لم يغفلوا عن هذا الجانب، وأشاروا إلى أن من الزحاف مايحسن ومنه مالاحسن فيه، وإن كان مستقيم العروض. والنوع الأخير ماكثر فيه الزحاف كثرة أخلت بالتناسب فيه، وأفقدته مايكون في الشعر من حسن الإيقاع، وجمال النغم. ومن ذلك النوع الذي استقام عروضه، واختل تناسبه قصيدة عبيد ابن الأبرص التي مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

وقد روى أن الخليل بن أحمد كان يستحسن بعض الزحاف في الشعر إذا قل و يستقبحه

إذا كثر. وقال بعض الأدباء عنه: هو مثل اللثغ في الجارية، يشتهي القليل منه، وإذا كثر هجن وسمج (٤٦). ويمكن أن نعلل لحسن القليل من الزحاف، بأنه يدخل شيئا من التنوع على النظام، ويخرجه بذلك عن الرتابة، والإيقاع المنتظم.

ومن الفصاحة في التراكيب . وضع الاستعارة موضعها. أو المجاز بصفة عامة. فمن الأصول التي يضعها ابن سنان الخفاجي لحسن التراكيب: «وضع الألفاظ موضعها حقيقة كانت أو مجازا (٤٧) بحيث لاينكر ذلك الاستعمال، ولايؤدي إلى بعد في المعنى، أو تعقيد فيه يسبب صعوبة في فهمه والوقوف على الغرض منه. وهو بهذا ينحو منحى عبد القاهر الجرجاني، إذ المجاز والاستعارة والكناية ـــ وهي الأمور التي فصل القول فيها ـــ من مباحث البلاغة. وقد سبقت الإشارة إلى أن عبد القاهر الجرجاني لايجعل للفظ فضلا على غيره في حال إفراده، ومن ثم لايوصف بالفصاحة. وإنما يوصف بها حين ينضم إلى غيره ـــ فيما أطلق عليه النظم.

ويعتمد ابن سنان الخفاجي في حسن الاستعارة قرب الشبه والتناسب الواضح بين المستعار منه والمستعار إليه. أو بين المشبه والمشبه به، وهذا الشرط هو ماذهب إليه عامة البلاغيين، ولم ينفرد منهم بما يخالف ذلك غير عبد القاهر الجرجاني. كما أنه ينفرد ببيان أثر الوسط اللغوي، أو السياق في حسن الاستعارة أو قبحها ـــ على نحو ما نجد عنده . لقد اقتصر دور ابن سنان على التمثيل لما حسن أو قبح من الاستعارة عند الشعراء. وانتهى إلى القول بأن مرد الحسن أو القبح قرب الشبه ووضوحه، أو بعده وغموضه. وهو بذلك يتابع ماذهب إليه القاضي الجرجاني. بل يقصر عنه فقد عرف الأخير الاستعارة، وأشار إلى ماتحسن به، وربط بين اللفظ والمعنى أو اشترط امتزاجهما والائتلاف بينهما. حين قال «والاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل. ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها. وملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا توجد منافرة بينهما، ولايتبين في أحدهما إعراض عن الآخر (٤٨)».

وليس من غاية البحث أن يتناول ماتكون عليه الاستعارة عند هذا الناقد أو ذاك، فلذلك مكان آخر لكنه يعني بالمدى الذي وصل إليه النقاد في الربط بين الاستعارة والسياق الذي ترد فيه، ومايترتب على ذلك من حسن الاستعارة أو قبحها، ومن ثم فصاحة الكلام أو عدم فصاحته.

ومن الأمثلة التي حسنت فيها الاستعارة قوله تعالى: «وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» فحقيقته ـــ كما يقول ابن سنان ـــ عمدنا. لكن «قدمنا» أبلغ لأنه يدل

على أنه عاملهم معاملة القادم يقدم من سفر، لأنه من أجل إمهاله لهم عاملهم كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم به. وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال. وقوله تعالى: «إنه لما طغى الماء حملناكم في الجارية» فقد عبرت الآية بالطغيان عن العلو لما فيه من معنى القهر، وهذا كان التعبير أبلغ من الحقيقة.

ومما جاء من الاستعارة حسنا في الشعر قول طفيل الغنوي:

وجعلت كورى فوق ناجية   يقتات شحم سنامها الرحل

فقد استعار «يقتات» ليعبر به عن معنى الإذابة. إذ بينهما مناسبة، إذ الشحم مما يقتات به. ولهذا حسنت الاستعارة.

ومنه قول امرىء القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل

فامرؤ القيس يصف الليل بالطول، ومن ثم بالثقل، فيعمد للتعبير عن ذلك بالاستعارة، التي يراها الآمدي — ويتابعه في ذلك ابن سنان — في غاية الحسن والجودة والصحة، لأن الشاعر حين أراد وصف الليل بالطول، ذكر امتداد وسطه، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا. وهو لهذا عنده — منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئاته. وذلك أشد مايكون على من يراعيه، ويراقب تصرمه، فلما جعل له وسطا يمتد، وأعجازا رادفة للوسط، استعار اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده، لأن قولهم تمطى وتمدد بمنزلة واحدة، وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه. وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لملائمة معناها لمعنى ما استعيرت له (٤٩)» وعلى الرغم مما توحي به عبارة الآمدي من أن امرأ القيس وطأ الأسلوب وهيأه للاستعارة لانجده يصل إلى ماوصل إليه عبد القاهر حين قال: «واعلم أن الفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وأن تكون في النظم — باب يكثر فيه الغلط، فلا تزال ترى مستحسنا قد أخطأ بالاستحسان موضعه، فينحل اللفظ ماليس له، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه، فظننت أن حسنه ذلك كله للفظ منه دون النظم.

مثال ذلك أن تنظر إلى قول ابن المعتز:

وإني على إشفاق عيني من العدى   لتجمح مني نظرة ثم أطرق

فليس ما في البيت من حسن بسبب أن الشاعر جعل النظر يجمح أو بمعنى آخر لأنه استعار

الجموح لانطلاق النظر فحسب. بل لأمور أخرى في الأسلوب أضيفت إلى هذه الاستعارة، وهيأت الأسلوب لها، وصنع الشاعر بينها نوعا من الترابط والتآلف، جعلها جميعها تتعاون في إبراز المعنى المراد. ومن بينها قوله في أول البيت «وإني» التي مهدت لدخول اللام في قوله «لتجمح» ثم قوله «مني» التي تشعر بمحاولة كبح جماح هذه النظرة. ثم تنكير النظرة حيث قال «نظرة» ولم يقل «النظر» وكذلك لموقع «ثم» في قوله «ثم أطرق». وكما يتبين عبد القاهر ـــ اللطيفة أخرى تصدرت هذه اللطائف، وهي اعتراضه بين اسم إن وخبرها بقوله «على إشفاق عيني من العدى».

وعبد القاهر لا يكتفي بالمثال يأتي به شاهدا على مايذهب إليه، بل يسوق الأمثلة المتعددة التي تنصر دعواه وتقويها، وتوضح جوانبها. مما يدل على أصالة هذه النظرة في فكره. ويكشف [illegible] هذا مما يحتاج إلى وقفة خاصة لتوضيحه. ويسوق مثالا آخر لهذا النوع في دراسته للبلاغة والفصاحة. يقول: «وإن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر إلى قوله:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

فإنك ترى هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها، إنما تم لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: «سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره» ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها» (٥٠)

وينتهي عبد القاهر في تقرير مذهبه ببيان أن الحسن يكون للفظ وحده، أو للنظم وحده أو لهما معا، والأخير ألطفها وأفضلها وأدقها. وهو ما يلتبس فيه الأمر على غير البصير. يقول «وجملة الأمر أنا نراهما كلاما حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثا ترى الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين، والإشكال في هذا الثالث، وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة. وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته (٥١)».

ومن الفصاحة حسن التكنية، عما يجب أن يكنى عنه. وقد قال ابن سنان الخفاجي عنه «إنه أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة» و يقول إنه اشترط أن يكون ذلك في الموضع الذي لايحسن فيه التصريح. كالمواقف الجادة. أما مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر فيرى ابن سنان أن التكنية لاتحسن فيها.

ولاشك أنه مما يحمد لابن سنان في حديثه عن الكناية ربطها بالموقف الذي ترد فيه إذ أن هذا الموقف هو الذي يحتكم إليه في قبولها أو ردها، لكننا نقول: إن إدخال الكناية في الفصاحة دليل على أن التفريق بين المصطلحين مفتعل. وكان يجدر با بن سنان أن ينحو منحى عبد القاهر.

و بعد أن وقفنا على آراء البلاغيين في الفصاحة، و بينا ما حدث بينهم من خلاف حول مفهومها ومفهوم البلاغة، وتناولنا معظم الشروط التي اشترطها هؤلاء وأولئك في الفصاحة، وأرجعنا جانبا منها إلى أصله الجمالي، الذي كان هدفا يمكن أن تتحول العبارة فيه إلى اللغة غير المشهورة، أو تخرج بنية الكلمة فيه عما يجب أن تكون عليه من أجل تحقيق هذه الغاية الجمالية. بعد أن قمنا بهذا ورأينا أهمية الربط بين البلاغة والفصاحة. نتناول بعض النصوص الأدبية بالتحليل لنبين مقدار ماوصلت إليه من الفصاحة والبلاغة.

يقول البحتري في مدح الفتح بن خاقان:

لعمرك ماينفك يسري لزينبا   خيال إذا آب الظلام تأوبا
سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى   هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
ومازارني إلا وَلِهْتُ صبابة   إليه، وإلا قلت أهلا ومرحبا
وليلتنا «بالجذع» بات مساعفا   يريني أناة الخطو ناعمة الصبا
أضرت بضوء البدر، والبدر طالع   وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقا ما أتته لأطفأت   غليلا، لاشتكت أسيرا معذبا
عشيتنا إن منيت، منيت موعدا   جهاما، وإن أبرقت أبرقت خلبا
وكنت أرى أن الصدود الذي مضى   دلال، فما إن كان إلا تجنبا
فيا أسفى حتام أسأل مانعا   وآمن خوانا، وأعتب مذنبا
سأثني فؤادي عنك، أو أتبع الهوى   إليك إن استعصى فؤادي أو أبى

كانت هذه الأبيات مقدمة القصيدة التي مدح بها البحتري الفتح بن خاقان، والتي كانت معانيها لا تبعد كثيرا عن المعاني التي طرقها الشعراء قبله، ولايزالون يطرقونها إلى عهده. لكننا لن نذهب في تناولها مذهب بعض النقاد القدامى الذين شغلوا بتتبع المعاني بين الشعراء

سعيا منهم إلى انتقاص هؤلاء الشعراء واتهامهم بالسرقة من غيرهم والأخذ عنهم. فالمعاني ليست جوهر الشعر، أو على الأقل ليست محل التفاضل بين الشعراء. ومحل التفاضل بينهم يكون في طرق تعبيرهم عن المعنى وتصويرهم له.

وفي هذه القصيدة لن نجد إلا شجاعة الممدوح وكرمه. وذلك ليس جديدا علينا في شعر الشعراء، لكن الجديد هو القالب الذي حمل هذه المعاني. والمقدمة الغزلية التي بدأ بها البحتري القصيدة. يتحدث فيها عن «الطيف» وهو جانب أكثر منه، وعرف عنه، واشتهر به مما دفع الآمدي الى تفضيله فيه على أبي تمام. وقال: «فأما البحتري فإنه أولع بذكر الخيال، فقال فيه وأكثر وأجاد، وأبدع وتصرف في معان لم يأت بمثلها أحد. وقد استفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال، لشدة شغفه به، فأحسن في ابتداءاته كلها، وزاد على الإحسان(٥٢). وقد كان القاضي الجرجاني أكثر تحديدا عندما استشهد بهذه الأبيات على السمح المنقاد من الشعر. وتساءل قائلا. «ثم انظر: هل تجد معنى مبتذلا، ولفظا مشتهراً مستعملا! وهل ترى صنعة وإبداعا، أو تدقيقا وإغرابا! ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقد مابداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك، ومصورة تلقاء ناظرك(٥٣)».

وحديث القاضي الجرجاني، هو حديث في الفصاحة والبلاغة. فليس في ألفاظ تلك المقدمة لفظ تقاربت مخارج حروفه فسبب عنتا في النطق، أو خالف اللغة في تصريفها واشتقاقها، كما أن هذه الألفاظ تخلو من الثقل منفردة ومجتمعة. لانشعر فيها بالغرابة أو الوحشية، أو السقوط والدونية. وهي تكشف عن معناها، وليس فيها لفظ يوحي بمعنى غير مستحب، أو لا تتضح دلالته. والتراكيب تنسجم فيها الكلمات وتتآلف، فلايوجد قلق أو اضطراب في نظمها، ولم يحدث الشاعر من التقديم أو التأخير مايعمي المعنى أو يعقده، ومن السهل على من يقرأ هذه المقدمة أن يصل من خلال تراكيبها إلى معناها المباشر، الذي يساعده على الوصول إلى المعنى الذي يريده الشاعر، والذي يتمثل في شدة حبه لتلك التي حرمته رؤيتها في الواقع، وألح عليه طيفها من نومه. لقد كان لشدة هذا الحب، ومايقابله من شدة الدلال أثر بالغ في نفسه. ولسنا نجد أي نوع من المخالفة لقوانين اللغة في التراكيب.

والأسلوب في جملته مترابط. كل لفظ فيه يمهد لما يأتي بعده، وكل لفظ يضيف شيئا إلى ماسبقه. وحسبنا أن ننظر إلى هذا القسم الذي يتصدر المقطوعة «أجدّك» وهو قسم بالحظ إن كان اللفظ مفتوحاً. وبالحقيقة — إن كان مكسورا، ومعناه أجدا منك، أو أبجد منك يظل هذا الخيال يواتيك كلما واتاك الظلام. ويأتي بعده الفعل المضارع «ينفك» بماتقدمه من النفي

ليفيد الملازمة والاستمرار على هذا العمل وهو طروق الخيال. ثم يتقدم «الجار والمجرور» «لزينبا» على الفاعل. ليحصر ذلك الخيال الزائر في زينب وحدها و ينفيه عن غيرها، أو لنقل حسب تعبير البلاغيين، ليقصر الخيال على زينب و ينفيه عن سواها. و يثبت بذلك حبه لها وحدها. و بعد ذلك يأتي لفظ آب وتأوب بما بينهما من التناسب المختلف. ويحكم البحتري الربط بينهما بأداة الشرط إذا. فاذا ما انتقلنا إلى البيت الثاني. وجدنا التلازم بينه و بين البيت الأول. فجملة «سرى» وصف للخيال. وقد جاء هذا الخيال الساري من أعالي الشام. و يقول الآمدي عن هذا البيت: وقوله من أعالي الشام. بيت في غاية الحسن. لقد كان هذا الخيال الساري رطبا نديا مسعدا مبهجا. رقيقا كنسيم الروض حين تجلبه ريح لطيفة رقيقة.

وفي كل زورة لهذا الخيال يتوله الشاعر، و يرحب به، و يتهلل له. بل يقف نفسه على الوله والترحيب به. وذلك مايفيده القصر عن طريق النفي والاستثناء. و يزيد من حسن النظم وجودة السبك بتكرار «إلا».

ويمكن أن نتوقف عند كل جزئية في هذه المقدمة لنستكشف لونا من الحسن أضفته هذه الجزئية على المعنى. و بخاصة إذا كانت هذه الجزئية أو تلك مما له دخل في الموسيقى التي كان البحتري يحشد لها طاقاته الفنية، ليصل بها إلى أقصى مدى ممكن. و يكفي أن ننظر إلى التقسيم وحسنه في قوله:

أضرت بضوء البدر، والبدر طالع   وقامت مقام البدر لما تغيبا

فقد ردد كلمة البدر. وقام، ومقام. وقابل بين طالع ــ وتغيب ومثل هذا التقسيم المليح

قوله:

علقتك إن منيت، منيت موعدا   جهاما، وإن أبرقت أبرقت خلبا

وفيه أيضا ظاهرة الترديد. حيث كرر منيت. وأبرقت. وقد هيأ للبرق الخلَّب. بالجهام والجهام في الأصل وصف للسحابة غير الممطرة، ولكنه استعارها للمنى الذي لايتحقق وهيأ بها الأسلوب للبرق الخلب، وهو الذي لايعقبه مطر. ولسنا في موضع البرق والمطر ولكن المطر بما يحييه من موات الأرض، ومايحدثه من بهجة فيها يتناسب مع الأماني إذا تحققت وماتحدثه في نفس الشاعر من إحياء الأمل، والبهجة والإشراق.

وعلى الجملة، يمكننا القول: إن البحتري قد وضع في هذه المقدمة كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه، وآخى بين الألفاظ. وهيأ الأسلوب لكل وسيلة فنية استخدمها فيه. وكشفت ألفاظه وعباراته عن معانيه، وأعانته موهبته الفذة في إحكام الرصف وقوة البناء.

ويقول أبو الطيب المتنبي من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة. ويذكر انتصاره على «الدمستق» ووقوع ابنه «قسطنطين» أسيرا في يده. ويهنئه بالعيد.

ولانريد إثبات القصيدة كلها خشية الإطالة. لكننا نشير إلى أن المتنبي استطاع أن يتصرف في المعاني ويطوع الألفاظ. وحسبه أن يرد في شعره طائفة من الاسماء الأجنبية «كالدمستق» وقسطنطين. ثم لانجد فيها ثقلا أو نبوا، وماذلك إلا لأنه قد هيأ لها الأسلوب، وآخى بينها وبين غيرها. ومطلع هذه القصيدة. يقول:

لكل امرىء من دهره ماتعودا   وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
وأن يكذب الإرجاف عنه بضده   ويمسى بما تنوى أعاديه أسعدا
ورب مريد ضره ضر نفسه   وهاد إليه الجيش أهدى وما هدى
ومستكبر لم يعرف الله ساعة   رأى سيفه في كفه فتشهدا
هو البحر غص فيه إذا كان راكدا   على الدر واحذره إذا كان مزبدا
فإني رأيت البحر يعثر بالفتى   وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له   تفارقه هلكى وتأتيه سجدا
وتحيى له المالَ الصوارمُ والقنا   ويقتل ما تحيى التبسمُ والجدا
ذكي تظنيه طليعة عينه   يرى قلبه في يومه ماترى غدا
وصول إلى المستصعبات بخيله   فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا
لذلك سمى ابن «الدمستق يومه   مماتا وسماه «الدمستق» مولدا
سريت إلى جيحان من أرض آمد   ثلاثا لقد أدناك ركض وأبعدا

فقد هيأ الذهن في البيت الأول لمدح سيف الدولة بالشجاعة، وإثباته أن إهلاكه أعداءه مما أصبح عادة له يأتيه ولايشعر في إتيانه أنه خرج عن السنن، أو أتى بأمر يستحق الوقوف عنده. فإذا كان كل أحد من الناس يأتي بالأمر الذي تعوده دون توقف أو تفكير فإن سيف الدولة عادته أن يطعن أعداءه ويهلكهم، وليس ذلك ماتعوده فحسب، فمن عادته أيضا أن يكذب الأراجيف، وذلك بتحقيق ضدها. فإذا كان أعداؤه يرجفون بالنصر، وينخرصون به، فإنهم يُمْنونَ بالهزيمة منه، والانكسار أمامه، لهذا كان يخشاه أعداؤه، ويرهبه مناوئوه. وحين يريد عدوه إلحاق الضرر به يضر نفسه، وحين يقود الجيش مؤملا في هزيمته.. يهدى إليه هذا الجيش أسيرا. والمعاني التي جاء بها لايغمض اللفظ عن الكشف عنها، كما أن هذه الألفاظ تأتي متجانسة متناسبة، معبرة عما يريد توضيحه وبيانه. وتلك هي الفصاحة. ألم نعرف

الفصاحة بأنها الكشف والظهور؟ وأن الألفاظ تكشف عن معانيها دون قلق أو اضطراب أو نبو؟ لقد شاكل المتنبي بين اللفظ والمعنى. واختار من الألفاظ مايتناسب مع الغرض. لكننا لانجد ذلك في كل الأبيات. ففيه مايلتبس المعنى، ولايكشف عنه اللفظ، ويحتاج إلى شيء من التأويل للوصول إلى مراده. وهذا مانجده في قوله:

هو البحر غص فيه إذا كان راكدا   على الدر واحذره إذا كان مزبدا
فإني رأيت البحر يعثر بالفتى   وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا

فهو يشبه سيف الدولة بالبحر يعطي الدر في حال سكونه وهدوئه. و يؤدي إلى الهلاك والتلف حين ثورته وإزباده.. وفيه تحذير لمن يتعامل مع الممدوح، فعليه أن يأتيه في حال صفوه، وانشراح صدره. لأنه حينئذ سيجده جزل العطاء، ولكن عليه أن يتجنبه في حال غضبه وثورته لأنه يهلك من يتصدى له و يقف أمامه.

وقد أراد المتنبي أن يفرق بين ممدوحه والبحر، فالبحر يفعل مايفعل دون قصد إلى فعل.. سواء كان هذا الفعل هلاكا أو إسعادا، وسيف الدولة يأتي كل شيء عن قصد وتعمد. لكن عبارة المتنبي لم تكشف عن هذا. مما دفع الواحدي: إلى القول بأن في كلامه خطأ من وجهين: الأول مخالفته لكلام العرب. لأنهم لايقولون: عثر الدهر بفلان إلا إذا أصابه بنكبة. ومعنى يعثر بالفتى في بيت الشاعر، يهلكه عن غير قصد. لأن العثر لايكون عن قصد. فهو يقول: البحر يغرق من غير قصد، وهذا يهلك أعداءه عن قصد وتعمد. والثاني أنه لايمكن أن تحمل عثرة الدهر بالفتى على إغنائه (٥٤) لقد شبه المتنبي سيف الدولة بالبحر في حالتين.. السكون، والغضب، ولكنه على أقل تقدير لم يوف القسمة.. أو العبارة لم تطاوعه، مما أحدث غموضا في المعنى، ذهب بجانب من الفصاحة.

وإذا كان المتنبي قد أخفق في هذه العبارة، فقد أحسن وأجاد في غيرها. وحسبنا أن نشير إلى استخدامه «رب» في البيت الثالث، وهي للتمثيل، و كأنه يريد من خلال الحرب أن يبين لنا أن قلة من الناس هم أولئك الذين يحاولون إضراره، وإلحاق الأذى به، جهلا منهم وسوء تقدير لما يكون عليه من سعادة حين يتقدمون بهدايا، لأنهم يقعون في يده فيهلكون أنفسهم. و يقدمون إليه جنودهم أسرى، وكأنهم يقدمونها هدية إليه.

وقد سبق لنا القول بأن التناسب باعث على الإعجاب، وهو لون من الفصاحة، لأنه من أسس الجمال. والمتنبي يعمد إليه في الأبيات التي بين أيدينا. ويحققه من عدة طرق:

أولا: عن طريق الترديد فقد يعيد اللفظ بحروفه كقوله في البيت الثالث:

ورب مريد ضره ضر نفسه

وقوله فيما بعد:

فأصبح يجتاب المسوح مخافة   وقد كان يجتاب الدلاص المسردا
ويمشي على العكاز في الدير تائبا   وما كان يرضى مشي أشقر أجردا

ثانيا: عن طريق حسن التقسيم كما يتمثل ذلك في قوله:

تظل ملوك الأرض خاشعة له   تفارقه هلكى، وتلقاه سجدا

وقوله

ولازالت الأعياد لبسك بعده   تُسلِّمُ مروقا، وتعطي مجددا

ثالثا: عن طريق المقابلة والتضاد. كما يتمثل ذلك في

تفارقه هلكى، وتلقاه سجدا

وقوله: هاد إليه الجيش. اهدى وماهدى

رابعاً: الجناس بأنواعه، سواء كان الجناس التام أو الناقص.

ولكل من هذه الطرق دوره في تشكيل الجمال الفني، واحداث مايراد للمتلقي من التأثير.

وفي الختام نستخلص أن هذه الألوان وغيرها كانت في بعض الحالات تأتي وحدها أو يركب بعضها في بعض، إلا أنّها في كل الأحوال تأتي في سياقها، وتظهر كأنها لم يعمد إليها.

«الـــــهوامش»

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ٣، ١ ـــ ١٦٥ ت . د . سامي العاني

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٦ ـــ ٢٥٧.

(٣) كتاب الصناعتين ص ١٣ ـــ ١٥

(٤) سر الفصاحة ص ٥٩ ـــ ٦٠

(٥) المصدر السابق ص ٦١ ـــ ٦٢

(٦) **دلائل الاعجاز ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥**

(٧) المصدر السابق

(٨) دلائل الاعجاز ٨٧

(٩) دلائل الاعجاز ص ٩١ ـــ ٩٢

(١٠) المصدر السابق ص ٢٦٦

(١١) الخصائص جـ ١/ ٣١٢

(١٢) سر الفصاحة ٦٦

(١٣) المزهر

(١٤) القاضي الجرجاني: الوساطة ١٨.

(١٥) د . بكري شيخ أمين: البلاغة في ثوبها الجديد ٣٣ .

(١٦) سر الفصاحة : ٩٦.

(١٧) سر الفصاحة : ٦٧ ـــ ٦٨.

(١٨) سر الفصاحة : ٧٠ ـــ ٧٣.

(١٩) سر الفصاحة : ٩٦

(٢٠) سر الفصاحة : ٧٩ ـــ ٨٠

(٢١) استعمال القراض بلفظ المفرد على خلاف الفصيح، والاستعمال العربي الفصيح ان يكون اللفظ مثنى، وقد خالف سيبويه في ذلك وأجازه بلفظ المفرد.

(٢٢) سورة هود: ٨١

(٢٣) الكشاف جـ ٢ ٢٨٤

(٢٤) الحجر : ٧٤

(٢٥) الفيل ٤

(٢٦) الديابوذ . نوع من الثياب ينسج على نيرين، ارندج جلد أسود وهما أعجميتان.

(٢٧) سر الفصاحة ٨٤ ـــ ٨٤

(٢٨) الوساطة ٧٩ ـــ ٨٠

(٢٩) الجن ١٤
(٣٠) الوساطة ٩٥
(٣١) سر الفصاحة ١١٤
(٣٢) في الأدب والنقد ٢٤، ٢٥ ـــ دار نهضة مصر ـــ القاهرة.
(٣٣) الكشاف جـ ٢ ٥٥٥ ـ ٥٥٦
(٣٤) شرح ديوان المتنبي: لأبي البقاء العكبري جـ١ . ٣٤ دار المعرفة ـــ بيروت ١٩٧٨.
(٣٥) الوساطة ٢٢ ـــ ٢٣
(٣٦) سر الفصاحة ١٨٣ ـــ ١٨٥
(٣٧) نقد الشعر ١٧٤
(٣٨) دلائل الاعجاز ٢٦٦
(٣٩) دلائل الاعجاز ٢٦٦ ـــ ٢٦٩
(٤٠) الموازنة بين أبي تمام والبحتري ٢٩٤ ـــ ٢٩٩
(٤١) سر الفصاحة ٢٠٠ ـــ ٢٠١
(٤٢) سر الفصاحة ٢٠٢ ـــ ٢٠٣
(٤٣) النجم ٨
(٤٤) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١٥٨
(٤٥) الفرقان ٧٤
(٤٦) قال بهذا الرأي أستاذنا المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس في محاضرة له
(٤٧) سر الفصاحة : ٢٢٥
(٤٨) سر الفصاحة ٢٢٥ ـــ ٢٢٦
(٤٩) المصدر السابق ١٢٤
(٥٠) الوساطة :
(٥١) سر الفصاحة ١٣٨ . الموازنة جـ٣، ٢٢٦
(٥٢) دلائل الإعجاز ١٣١
(٥٣) دلائل الإعجاز ١٣٢
(٥٤) الموازنة جـ ٢ ١٦٧، ١٧٠
(٥٥) الوساطة ٢٧
(٥٦) شرح ديوان المتنبي. العكبري جـ١ ٢٨٢

مصادر البحث

١ ــ أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني ت. رشيد رضا القاهرة — ١٩٥٩

٢ ــ البلاغة في ثوبها الجديد — د. بكري شيخ أمين ط ١ دار العلم ــ بيروت ١٩٧٩

٣ ــ تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة : السيد صقر ــ دار التراث — ١٩٧٣

٤ ــ الخصائص — ابن جني : محمد علي النجار ــ دار الهدى بيروت

٥ ــ دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجاني ــ ت خفاجي ط ١ القاهرة — ١٩٦٩

٦ ــ سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجي ت. : عبد المتعال الصعيدي — ١٩٥٣

٧ ــ شرح ديوان المتنبي — ابو البقاء العكبري دار المعرفة ببيروت — ١٩٧٨

١٠ ــ الطراز — يحيى بن حمزة العلوي المقتطف ــ مصر — ١٩١٤

١١ ــ المزهر في علوم اللغة — جلال الدين السيوطي ــ ت ــ جاد المولى
دار إحياء الكتب العربية — ١٣٨٢هـ

١٢ ــ من أسرار اللغة — د. ابراهيم أنيس ــ ط ٦ القاهرة — ١٩٧٨

١٣ ــ الموازنة بين أبي تمام والبحتري الآمدي ط ٢ ت السيد صقر — ١٩٧٨

١٤ ــ نقد الشعر ــ قدامة بن جعفر ت. خفاجي — ١٩٨٠

١٥ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه. القاضي الجرجاني ت. البجاوي ــ أبو الفضل — ١٩٦٦

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الاول في يناير ١٩٧٥

تصل اعدادها الى ايدي نحو ٢٠٠ر٠٠٠ قارىء

يحوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : —

- مجموعة من البحوث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون
- عدد من المراجعات المتعمقة من اهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- ابواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — ببليوجرافيا .
- ملخصات للبحوث باللغة الانجليزية .

منشورات المجلة

استطاعت المجلة باصدار عدد من سلاسل الكتب هي : —

اولا : **سلسلة المنشورات** ، وقد صدر منها حتى الان احد عشر منشورا من احدثها :

- منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول ١٩٦٨ — ١٩٧٧ : دراسة مقارنة في التنظيم الدولي د. عادل حاكم .
- **قواعد الملاحة عند بن ماجد والقطامي** . حسن صالح شهاب .

ثانيا : سلسلة الاصدارات الخاصة ، وصدر منها حتى الان ثلاثة عشر كتابا ، من احدثها :

- **المفهوم الحديث للتسويق وتخطيط الخدمات المصرفية في البنوك التجارية الكويتيـة .** د. عبد الفتاح الشربيني ، د. السيد ناجي
- رسالة في تاريخ اليمن : مطالع النيران . د. محمد عيسى صالحية .

ثالثا : سلسلة كتب الوثائق ، وقد صدر منها كتب الوثائق للاعوام : ٧٥ — ٧٦ — ٧٧ — ٧٨ — ٧٩ — ٨٠ .

الاشتراكات

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي او ما يعادلها في الخارج

الاشتراك للافراد : سنويا ديناران كويتيان أو ١٥ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

الاشتراك للمؤسسات والدوائر الرسمية : سنويا ١٢ دينارا كويتيا أو ٤٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب — الشويخ — دولة الكويت
ص.ب : ١٧٠٧٣ — الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ — ٨١٦٧٩٩ — ٨١٦٨٢٤
جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

المجلة العربية للعلوم الانسانية

تصدر عن جامعة الكويت . فصلية محكمة . تقدم البحوث الأصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

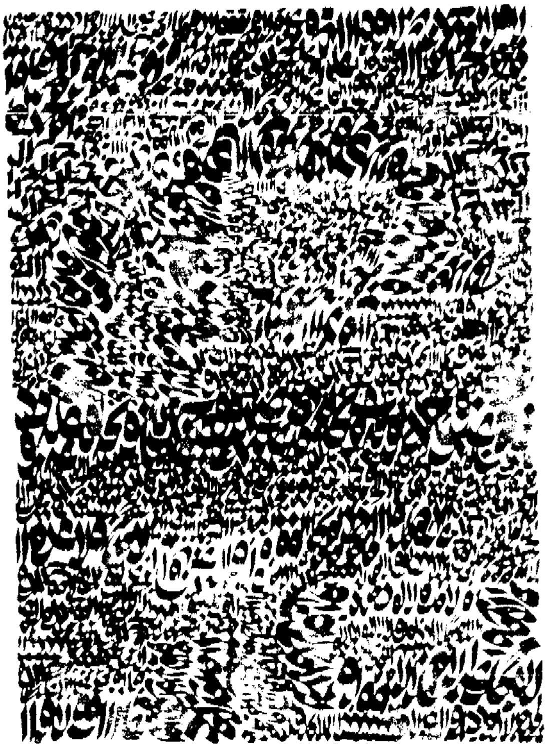

رئيس التحرير

د. عبدالله العتيبي

مديرة التحرير

آمال بدر الغربللي

كتابخانه و مركز اطلاع رسا
بنياد دايرة المعارف اسلا

جميع المراسلات توجه الى رئيس التحرير ص ب ٢٦٥٨٥ الصفاة ـ الكويت
هاتف ٨٢١٦٣٩ ـ ٨١٥٤٥٣ (الشويخ) ـ تلكس ٢٢٦١٦ KUNIVER

تصدرها
جامعة
الكويت

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة فصلية أكاديمية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول العلوم الاجتماعية.
رئيس التحرير: د. خلدون حسن النقيب
مدير التحرير: عبد الرحمن فايز المصري

منبر حوار للأكاديميين العرب.
توزع أكثر من (٨٠٠٠) نسخة.

الاشتراكات

للمؤسسات: ١٢ ديناراً في الكويت،
٤٥ دولاراً أمريكياً في الخارج
للأفراد: ٢ دينار في الكويت، ١ دينار للطلاب
٢,٥ دينار أو ما يعادلها في الوطن
العربي.

١٥ دولاراً أمريكياً في الخارج.

الموزع في الكويت والخارج: مجلة العلوم الاجتماعية

توجه جميع المراسلات الى رئيس التحرير على العنوان التالي:
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت /ص.ب ٥٤٨٦/ الكويت
هاتف: ٢٥٤٩٤٢١ / تلكس ٢٢٦١٦

المجلة التربوية

تصدر عن كلية التربية - جامعة الكويت

فصلية ، تخصصية ، محكّمة

رئيس مجلس الإدارة
د. سعد جاسم الهاشل

رئيس التحرير
أ.د. فكري حسن ريان

تنشر البحوث التربوية ، ومراجعات الكتب التربوية الحديثة

ومحاضر الحوار التربوي ، والتقارير عن المؤتمرات التربوية

- ★ **تقبل البحوث باللغتين العربية والانجليزية**
- ★ **تنشر لأساتذة التربية والمختصين فيها من مختلف الاقطار .**
- ★ **تطلب قواعد النشر من رئيس التحرير .**
- ★ **تقدم مكافأة رمزية للناشرين بها .**

الاشتراكات :

للأفراد في الكويت : ٢ د.ك وللطلاب ١ د.ك
للأفراد في الوطن العربي : ٢ر٥ د.ك وللطلاب ١ر٥ د.ك
للأفراد في الدول الأخرى : ١٥ دولارا أمريكيا بالبريد الجوي
للهيئات والمؤسسات : ١٢ د ك وفي الخارج ٤٥ دولارا أمريكيا

توجه جميع المراسلات إلى :

رئيس التحرير - المجلة التربوية - ص.ب ١٣٢٨١ كيفان - الكويت

ELOQUENCE: its CONCEPT, APPLICATION AND AESTHETIC VALUES

ABSTRACT

This treatise contains of theortitcal and applied Study of the notion of eloquence in Arabic classical literature.

In the preface Idiscusses the factors which affect the formation of Arabic Rhetoric in general and the rules of eloquence in paticular. I attribute the disegreement of Arab scholars about eloquence to the difference of their background (theology, Islamic Jurisprudence, Linguistics, Literature and Aesthetics)

The treatise deals with three main topics:—
The First with the meaning of the term eloguence in classical literature.

The Second with conditions of eloguence in words and constructione. The search discusses three conditions in view of the principles of Aesthetics. These conditions are:—

a) The conformity of words with derivative and morphological rules. But this study adopts a different view. It has proved, through texts from Qur'an, Traditions and poetry, that rules were frequently brokon for artistic purposes.

b) Propartion ality of words and sentences. Under this topic many artistic indications are treated.

c) Avoidance of abscure and vulgar words, My view is that men of letters would make these words acceptable by putting them in suitable linguistic contexts.

The third and last topic is an applied one. Two poems are analysed to show:—

a) The congruity between words and sentences.
b) How poets put congruity in oporation to clarify meanings and coneepts.
c) The stylistic significance of these poems.

THE AUTHOR

Dr. Tawfeek Ali al-Feel

Ph. D. in literary Criticism, Ain Shams University.
Assistant Professor, Dept. of Arabic Language and literature.
Kuwait University

PUBLICATIONS:

Topics in Criticism and Rhetoric, 1980.
New Artistic Values in Abbaside Poetry, 1984.

Taha Husain and the Hellenic Influence on Arabic Rhetoric, Arab Journal for the Humanities, Kuwait.

The Place of Rhetoric among linguistic and literary Studies, AL-Bayan, Kuwait.

TWENTY-SEVENTH MONOGRAPH

ELOQUENCE:
ITS CONCEPT, APPLICATION AND AESTHETIC VALUES

Dr. Tawfeek Ali Al-Feel
Department of Arabic Language and
Literature - Kuwait University

Annals Of The Faculty Of Arts

Volume VI, 1985

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ANNALS OF
THE FACULTY OF ARTS

Issued by the Faculty of Arts. Kuwait University

A REFEREED SCIENTIFIC PERIODICAL COMPRISING SEVERAL AUTHENTIC MONOGRAPHS ON TOPICS RELEVANT TO THE FIELDS OF LANGUAGE, LITERATURE, PHILOSOPHY, HISTORY, SOCIOLOGY, GEOGRAPHY AND PSYCHOLOGY.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

Volume VI, 1985

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

Dr. Abdulla Al - Ghoneim — Director of Editorial Board
DR. Nagat El - Gassem — Chief Editor

Editorial Board
Prof. Fouad Zakariah
Prof. Dawood H. El - Sayed
Prof. Ahmed A. Ismail
Prof. Saeed Ashur
Prof Saad Abdel Rahman
Dr. Mohammed S. El - Hadad
Dr. Tawfig El - Fee

Price of the Monograph

400 Fils in Kuwait & $ 2.00 in All other Countries

Subscription :

For individuals : K.D. 2/000 in Kuwait, U.S. $ 20.00 in all other Countries (by air).
For institutions : K.D. 10 per year in Kuwait.
U.S. $ 40,00 in all other Countries (by air)
5% of Special discount for Faculty & Students

Mail all communications, including publishing conditions and Subserptions to:

Editor,
ANNALS OF THE FACULTY OF ARTS
P.O. Box : 17370 El - Khaldiah - KUWAIT

[illegible]

issued by the Faculty of Arts, Kuwait University

Dr. Tawfeek Ali Al-Feel
Department of Arabic Language and
Literature - Kuwait University

ELOQUENCE: ITS CONCEPT, APPLICATION AND AESTHETIC VALUES

TWENTY-SEVENTH MONOGRAPH

Volume VI, 1985